

الكتاب الأول

سارق الضوء

قصص

بقلم : ليالى أحمد

المجلس الأعلى للثقافة



الكتاب الأول

سارق الضوء

قصص

بقلم : ليالى محمد على أحمد

الإشـــراف الفنـــي :**محمود القاضي**

مـــدير التـــحـــرير:**منتصر القفاش**

لوحة الغلاف

فلاحة مصرية للفنان الفرنسى شارل أميل

زيتية سنة ١٨٧٢

الشجرة

استقبلتنى « الروضة » الراقية سابقاً ، الهادئة قديماً بوجه ضجر مكفهر من شدة الزحام والحرارة ، بدا النيل أيضاً متعكر المزاج ، ضائقاً بالحصار العشوائى للأبنية والأشغال من حوله ، متألماً لما آلت إليه الأحوال ، مهدداً بقرب نفاد صبره .

زيارة أقوم بها للبيت القديم ، « البيت الكبير » كما تعودنا أن نطلق عليه فى الفترة الأخيرة ، غرضها تفقد « مواسير المياه » التى أصابها هى أيضاً التسيب والفساد من طول الإهمال ودفع ثلاثة أشهر من الإيجار متأخرة علينا ، وجب الوفاء بسدادها والتوقف عن « نهل عسل الحبيب » قبل أن يفيض به الكيل ، فقد صبر مالك العمارة على تباطئنا الأشهر الماضية إكراماً للعشرة الطويلة والصداقة القديمة لأصحاب البيت الأولين ، متفهماً انشغالى وأختى فى شئون الحياة التى لا تنتهى ولا تهدأ ، متأكداً من أن الجنيهات القليلة التى ندين بها لن تفك له أزمة مالية ولن تسد بنداً من البنود المفتوحة على مصراعيها لأوجه الصرف .

عودة لها وقع جديد ، طابع مختلف لم أشعر به من قبل ، أعوام كثيرة مرت على تركى مرتع طفولتى وصباى ، تخللتها زيارات بدأت

متكررة طويلة فى أول الأمر ثم تقلص عددها وطول مدتها بوفاة أمى ، وانتهت تماماً بزواج آخر إخوتى ، أغلقت الشقة وأصبحَ حِيْنًا القديم مجرد معبراً للوصول إلى الأحياء الأخرى التى نقصدها ، وتولى أخى الأكبر أمر دفع إيجارها إلى أن سافر منذ شهور وكان علىّ أن آتى أنا بدلاً منه .

داخل الفناء الرطب أستعيد شعورى القديم وأنا عائدة من المدرسة فى أيام مايو القائظة ... نفس تمتعى الشديد ببرودة المكان وكأننى قد فتحت بابٍ لثلاجة كبيرة ووقفت أمامها .

لافتة على باب المصعد معلقة ، تخبرنى عن عطلة فأهمس لنفسى « الأيام الخوالى تعيد نفسها » ... أصعد السلم وأتوقف فى الدور الأول ، بتلقائية أجلس على الكرسى الحديدى المثبت فى زاوية الحائط على شكل مثلث بجوار الشباك الذى يكاد يلامس بحافته العلوية السقف العتيق .

لحظة وأنهض لأطل منه على حديقة جارتنا « الأرمنية » ساكنة الدور الأرضى ، أبحث عن زهورها الملونة العطرة التى كانت تزين هذه المساحة الخلفية الضيقة المحسورة بين بنايتين ، فلا أجد أثراً للحشيش الأخضر المأقلم ولا لأطواق «الهيلاهوب » التى كانت تعلقها بحرصٍ على الجدار المقابل ، كل ما أراه الآن أطلالاً لربيع ولى وكماً من المخلفات لمكان مهجور ، رغم أن صوتها الضعيف يصلنى مؤكداً أنها مازالت تسكن هذا المكان .

للدور الثانى أصعد ومرة أخرى من خلال نافذته بسهولة أستعيد ذكريات الطفولة ، أرسل نظراتى إلى العمارة الملاصقة « لمنورنا » فأكاد أرى أعداء شلتنا فى الصغر يخرجون لى ألسنتهم ويسطحون أكفهم فاردين أصابعهم بالعشرات فى وجهى فتنتابنى نوبة من الضحك وأنا أردد لنفسى أسماءهم التى أتذكرها جيداً ، حتى تدمع عيناى .

أواصل إلى الدور الثالث ، فإذا بالوقوف هنا له إحساس متفرد فلهذه النافذة مكانة خاصة عندى ، منها نفذ « سهم كيوبيد » لأول مرة إلى قلبى الأخضر ، عبرها وبالأعين فقط دون حاجة لكلام تجلت فصاحة اللغة كلها لتعبر عما فى صدرين صغيرين « أنا وابن الجيران » كل يوم وفى نفس الموعد ، وقت قيلولة الأهل وهدوء حركة الجيران وانشغال الإخوات ولعدة سنوات . أتمتم بشجن « ما الحب إلا للحبيب الأول » ثم أبتسم متسائلة « ترى هل يتذكرنى أحياناً » .

أمام باب الشقة التى شوهنا الحوائط من حولها بجهالة الطفولة أقف .. أتبين حروفاً محفورة تبدأ بها أسماؤنا ... وأرقام أمامها لنتائج سباقات جرت بيننا فى « سرعة صعود الدرج » مفضلين إياه بنوافذه الحية على المصعد الخشبى دائم العطل .

أدير المفتاح بثقب الباب وأدخل فتحتضننى رائحة الذكريات ، يرحب بى تاريخى الذى كتب سنة بعد سنة فى أركان هذا المنزل ، ولم تستطع أكوام التراب حجبه أو النيل من معالمه ، احتفظت الجدران بتفاصيله وحافظت عليه قطع الأثاث الأصيلة .

تجذبني ذكرى مميزة من يدى فأسلم لها خطواتى لتقودنى إلى الشرفة الوحيدة بالمنزل والتى تتوسط بمكانها شاشة السينما المواجهة لنا تماماً .. أنظر إلى أسفل فإذا بكشك « عم رمضان » مازال رابضاً مكانه تظلله الشجرة العملاقة التى طالما عذبنا « البلدية » بالشكوى من نموها الإخطبوطي وطالبناهم بضرورة سرعة قص فروعها وتهذيب أغصانها قبل يوم الإثنين « موعد بدء عرض فيلم جديد » ننتظر ظهوره على الشاشة ونرتب له قبلها بأيام فنقسم المهام بيننا والمصطفين من الأصدقاء والجيران ، نحدد لكل شخص ما سيحضره معه ، ونتيه نحن فخراً بالتزام الجميع حسن السير والسلوك معنا خوفاً من أن نغدر بهم وتستبعدهم يوم حفل الإفتتاح .

أسحب أحد الكراسى التى كانت مخصصة للمشاهدة من حول مائدة الطعام فى الصالة ، أخرجه وأجلس عليه ، فأكتشف أنه فى غفلة منا قد تآمرت أغصان الشجرة المتجددة الخصوبة مع الزمن واستطاعا معاً حجب جزء كبير من الشاشة عن مستوى النظر ، أنظر بساعتى فأجد اليوم يوافق الخميس ، لابد إذاً من تنبيه « البلدية » للقيام بدورها قبل بدء العرض الجديد .

دون تفكير أتوجه إلى الداخل قاصدة الطاولة الموضوع عليها الهاتف ، دون عناء فى التذكر أدير رقم تليفون « البلدية » فيرد على من يخبرنى أن هذه الأرقام لمنزل وليست لهيئة عامة ... أخرج الأرقام من الأجندة الراقدة أمامى فأتأكد من سلامة ذاكرتى .

أستعين بالاستعلامات فيتهكم عليّ صوت متعجل « لم يعد هناك - شئ يسمى بلدية » ويغلق الخط فى وجهى بغير صبر أو رغبة فى المساعدة ، أعيد المحاولة مستفسرة عن الجهة البديلة فيقذف نفس الصوت بسرعة بأرقام مجلس الحى فى الهواء فألتقطها بمهارة وتحدى .

وبعد محاولات عديدة مع الرقم المشغول دائماً أستطيع الفوز بالرد على ندائى ، فأقدم طلبى ، ذاكرة اسم دار العرض ، راجية ضرورة الإسراع بالتنفيذ قبل يوم الإثنين ، فأفيق على خبر إغلاق هذه السينما منذ أكثر من خمس سنوات .

الأساور الحمراء

تجبر جذبة قوية من يده قدمها الأمامية على الحركة ، فتحرن القدم الخلفية على مطاوعته ، تتشبث بالطمى المندى تحتها ، تود لو تنزرع فيه تغوص به ، لو يسحبها كلها داخل .

يفور الرفض داخلها يردد « لا أريد العودة ثانية لتلك العجوز المجنونة » فتتلقى لكمة فى كتفها تسكتها تنظر إلى ساعدها بألم ..

لا تزال آثار الأساور التى أحدثتها مخدومتها بأصابعها الرفيعة « المعرقبة » فى التوائها العكسى حول معصمها تؤلمها ، وكلماتها التى تسكبها فى أذنها بحرص حتى لا يقع منها حرف خارجها تسكن قاع طبلتها ... تسمعها « كنت ناوية أجيبلك غويشة ذهب ، لكن بعد ماكسرت الكباية ، دى الغويشة اللى تستحقيها » وتزيد من «تقريطها » على لحمها القليل الذى يغطى عظمة معصمها فتظهر الأسورة الحمراء كعلامة إنذار تحذرها حتى تمسك فى المرات القادمة بالأكواب جيداً . ورغماً عنها كان السهو يغلبها أحياناً فتفر من بين أصابعها قطعة غسيل تنجو بنفسها فتتسبب فى إيذائها بإضافة إسورة جديدة إلى ذراعها ، أو ينزلق المنديل الصغير الذى يغطى رأسها إلى الخلف قليلاً فتمتد يدها بعفوية « جاهلة بالإثم الذى تفعله » إلى خصلة شعر تعبث

بها ، تبرمها فتتدلى على جبينها ، فتسدد إلى فخذها لكزه سريعة قوية من قدم سيدتها العجوز فتهب مخبئة يدها ، تقفز فى التو من أمام التلفاز الذى تسمح لها بمشاهدته أحياناً إذا ما كانت معتدلة المزاج راضية عنها « وقل ما تكون » دون أن تدرى أنها تمارس نوعاً آخر من تعذيبها عندما تطلعها على ذلك العالم السحرى لدقائق ثم تعيدها بغلظة إلى الواقع الذى تعيشه .

تدافع عن نفسها مستنجدة بأبوته « يا أبا دى بتكرهنى كل ما أكبر شوية ، يعني وهوه بإيدى يعني ، دنا لو كبرت أكثر من كدة هتموتني » تسترجع كلامها « شوفتي بقيتي زى البغلة إزاى ، من اللهط اللى بتلهطيه من ورايا ، مفعوصة زيك لسه مكملتش أربعتاشر واللى يشوفك يقول عشرين ، وأنا عارفه إنك هتجيبيلى مصيبة قريب».

كانت كلما انفرد طولها وبختها ، كلما زادت استدارة صدرها عاقبتها وكأنها يد الطبيعة ذاتها ، حتى أنها حشرتها في ثياب ضيقة لتسخطها وتخفى ملامح خطيئة نموها المبكر .

أغلقت عليها النوافذ والأبواب ، حرمتها من نزول الشارع لابتياع طلبات المنزل ، حتى أحلامها لم تتركها لحالها كثيراً ما كانت توقظها بركلة فى جنبها بعد أن تغط فى النوم لتتأكد من كونها نائمة .

إمتلأت ذراعاها بالأساور الحمراء وكلما مر الوقت استطالتا أكثر لتسعا المزيد ... إلى أن وسوس لها طيش التمرد بالحل .. تسللت هاربة إلى بلدتها . قاربت قريتها وقت الظهيرة ... بسعادة طفولية نوت الاتجاه أولاً إلى « الجنينة الشرقية » آملة أن تجدهن هناك جالسات فى حلقتهن

المعهودة ، يرددن الأغنيات الجميلة وهن يتبادلن الدور فى الرقص وصوت تصفيق أيديهن يعلو فى رتم منتظم محبب ، أو ربما يتهامسن الآن بأخبار القرية من قصص الحب والزواج والفضائح والجرائم ... أو يكن يتسلين بالبحث عن الثعابين الساكنة جحور الحديقة ويتصايحن تلك الصيحات التى كانت تشارك فيها إذا مالمحت إحداهن ثعباناً يزحف جوار الجدار فيستنجدن « بصابر » عن عمد متبادلات الغمز واللمز ، مراقبات للألوان التى تتبدل على وجه « قمر » تتذكر الأيام الخوالى فتتسع ابتسامتها وتحدث نفسها !! صابر كان دايما يعاكس قمر ، يكنش أتجوزها دلوقت يمكن أديلى سنتين غايبه مين عارف » .

تواصل السير ، تلفحها شمس طازجة ... يزف مقدمها سرب من الذباب اللزج كانت قد نسيت عناده ، تهشه بيدها عن وجهها ليعاود الالتصاق به فى إصرار شديد ، يشنف أذنيها خرير ماء تقلبه ساقية تجرها بقرة كسول مغماة ... يظهران لها من حيث لا تدرى ، يدوران حولها أحدهما قاضماً على طرف جلبابه بأسنانه منتشياً بعرى نصفه السفلى تماماً يحاول الإمساك بالآخر الذى اكتشف مكاناً للاختباء فى طرف ثوبها الطويل غامراً بالضحكات طياته ، فتزيحه عن طريقها بدلال سعيد ... تتلكأ فى سيرها مستمعة باسترداد حريتها ، تستقبل تحية من هنا وترسل بأخرى هناك .

وفجأة ينقض عليها من الخلف ، فترتفع شهقتها وتتبعها ببسملة سريعة ، تضغط يد قوية تعرفها على رقبتها من الخلف مكوره منديل الرأس وضفيرتها تحتها ، تزعق كلمات بأذنها تكاد تخرقها ، « يخرب بيتك ، أيه اللى جابك دلوقتى ، جيتى إزاى وليه ؟؟ » برعب ترد

مستعطفة إياه « مش عايزه ، أرجع لها تانى ، بتكرهنى يا أبا »
يؤرجح رأسها بيده مؤنباً « يابت أنت جنسك إيه ؟ مستخسره فى أمك وإخواتك اللقمة اللى بناكلها من ورا خدمتك عندها ، مانتى عارفه إنى صاحب عيا ومفياش حيل لشغل ، كتك الغم ، هترجعى ، هترجعى والا موتك يبقى أوفر ... يلا قدامى قبل النهار ميروح » .

تسأله راجيه - « طب أشوف أمى وأخواتى » .

يرد بقسوة - « كاكى خوت يعنى يهموكى قوى يابت » .

تحاول مرة أخرى - « طب والنبى يا أبا أشوف صحباتى » .

فلا يتراجع - « إنجرى يابت خلى نهارك يعدى » ثم تنخفض نبرة صوته سائلاً - « معاكى فلوس » » .

بإنكسار تجيب « لأه » .

يدفعها أمامه منفساً عن غضبه بزفرة طويلة موصولة بتمنى - « على الله ترضى تخدك تانى بعد عملتك السوده دى ، خدك ربنا » .

يسبق خطاها ، كبهيمة يجرها خلفه ... تجبر قدمها الأمامية على الحركة جذبة قوية من يده فتحرن القدم الخلفيه على مطاوعته ثم مرغمه تستجيب الخطى فى زحف بطىء يسحق تحته أحلام طفولة أقصى مرادها جلسة فى « الجنينة الشرقية » بين الصحاب متنازلة عن أوهام الفوز بالأساور الذهبية .

يوجـا

أمام نشرة الأخبار بالشاشة الصغيرة واتتنى الفكرة !!

الحصـان الخـاسـر دائمـاً لمـا لا نعطل عـمله ؟ لمـا لا نخرجـه من الحلبة ... نلجمه ... نكممه ... ونودعه إسطبلاً بعيداً ، فنوفر الجهد ونستريح من قلق المجازفة والترقب والأمل فيما ليس مضمون النتائج .

استبدلت بالكلام صمتاً واكتفيت بالمراقبة .

فكرة غريبة أقدمت على تنفيذها متعجباً من رغبتى فيها ...

مندهشـاً من قدرتى عليـها ، نويتـها ليوم أو اثنين ثم استمتعت بالتجربة وكأننى على بداية طريق « النيرڤانا » أسير ، أو أحد مسالك « اليوجا » أتبع ، فمضيت فيها شاحذاً همم حواسى الأربعة معوضاً بها خرساً من صنع يدى .

لم يكن إضراباً ولا اعتراضا بقدر ما كان ترفع عن التحاور مع من لا يسمع ، استغناء عن عضو من الأعضاء لا جدوى له الآن ولا فائدة منه ترجى ، نوع من التدرج الطبيعى فى سلم التطور ، استكمالاً لنظرية النشوء والارتقاء « لداروين » ، ولم لا وقد أصبح هذا العصر يتطلب نوعاً من التحديث والإضافة للنظريات السابقة لمواكبته والتوافق معه ،

بعدما تحول كل فعل إلى عصفور طائر فى الهواء محشواً فمه بالكلمات وعجزت القيم الجميلة والأهداف النبيلة والمشاعر العميقة عن تحقيق ذواتها على الأرض ، ووزعت مع شهادات الميلاد بطاقات تؤكد حق كل مولود فى الكلام كما يحلو له وبنهاية تلك البطاقات ختم لدولة « مالطة » القديمة .

طارت الإشاعة تحمل خبرى وتحركت الألسن تتعجب تارة مما أصابنى فجأة وتتحسر أخرى على شبابى ، وانقسم من حولى إلى أطباء نفسيين ، وأمهات روحانيات وصغار يتناوبون العطف والخوف علىّ ومنى .

وامتنعت عن تحريك يدىّ فى الهواء لأرسم بهما إشارات تعبر عما أريد ورفضت إستخدام ورقة وقلم للتوضيح ..

فضلت أن أحير كل من لا يفهم حاجاتى الأساسية البسيطة ... حقوقى التى لا تحتاج إلى فكين وبينهما لسان ، ولا لتلويح بالإشارات والعلامات .

أصرت زوجتى فى أول الأمر على توجيه اللوم لى لقيامى أحياناً بحركات من وجهة نظرها لا تصح وقد كبرت عليها ... رددت بثقة وكادت تحلف بأغلظ الأيمان أنه « خرس » مقصود ، إحدى حالات الرفض المجنون التى تصيبنى عندما يفيض بى الكيل من مراقبة أحوال الدنيا .

أكدت لى من جديد أننى لست مسئولاً عن إصلاح العالم ، ولا هداية البشرية وحدى عرفتنى حجمى « أنت لست نبياً ، ولا مصلحاً

اجتماعيا » حددت لي دوري « يكفي جداً أن تقوم بواجباتك وتطبق على نفسك كل ما تراه أخلاقياً وصحيحاً » .

وبعد فشلها في إخراجي من صمتي ، بدأت تتشكك في صحة رأيها في الموقف ، في مدى معرفتها بي ، وشجعت مشورة الأهل والأصدقاء بضرورة ذهابي إلى طبيب نفسي .

حاولت بكل الطرق إقناعي ، ولم أستجب ... ويبدو أني قد أصبحت أكثر راحة لها وتجاوباً معها في حالتي الجديدة ، فتوقفت بعد حين عن الإلحاح عليّ بضرورة العلاج وسارت العلاقة بيننا أسهل وأجمل مما كانت عليه من قبل فبمجرد النظر في عينيّ كانت تعرف ما أريد وأنكمش حجم الجدل في أحاديثها حتى تلاشى ، حملت الأعباء معي راضية ووفرت الهدوء لحياتنا رفقاً بأعصابي وغمرتني برومانسية تعجبت منها وسعدت بها .

عندما ذهبت إلى عملي شعرت بجو مختلف مريح فلقد تخلص الزملاء من نصف غبائهم في محاولاتهم التواصل معي ... اختصروا كثيراً من الأخطاء والروتين رأفة بحالي ... قل مزاحهم الثقيل ، وتطفلهم السخيف فلم يعد هناك مجال للإجابة على أسئلة تفصيلية عن كل ما ليس من شأنهم . ولم يكن يفرق معي أن أعرف إذا كان صمتي قد أضاف الهيبة على شخصي أم أضاف ضعفاً ، فقد أرضتني النتيجة النهائية التي وضعت الأمور في نصابها كما كنت دائما أتمنى .

على سلم العمارة التي أسكنها تنحى جانباً عندما رآني هابطاً الدرج خلفه مَنْ يمكن أن يطلق عليه « أسخف » من تعاملت معه من

الشباب وأكثرهم « لا مبالة وقلة فهم » أفسح لى الطريق بعد أن حرك رأسه بأدب وهمس بتحية المساء ، وأمام المنزل جمع شلة أصدقاءه من فوق سيارتى المتواضعة بهمة غير معهودة وتحول بهم إلى سيارة أخرى .

لمحنى طفل الجيران المشاغب فترك الشجرة على الفور فتعجبت من أمره فلطالما بُح صوتى ينهره ليرحم أغصانها الوليدة الضعيفة من الأرجحه ذات اليمين وذات اليسار دون أن يحرك ساكناً لنصحى أو يستمع لكلامى .

ومن خلف الزجاج الأمامى للعربة لاحظت أن حارس العمارة لأول مرة فى كامل انتباهه وتركيزه وهو يزحف بخرقته المبللة فى دوائر ، يتلصص علىّ بين كل دورة مسح وأخرى ، يتفرس فى وجهى وكأنه يبحث عن المخبأ الذى أودعته صوتى .

على الطريق تصاحبنى رغبة فى تحريك أحبالى الصوتية ، فقد تبينت حكمة أريد أن أفصح عنها ، أقولها للآخرين ، أهدىء من سرعتى ... أخرج نصف رأسى من الشباك ، أستعد لأنطق « اصمتوا تجدوا من ينصت لكم ، فلن تحل الكلمات مهما كانت مقنعة جذابة مشكلة ، لن توقف حرباً لن تؤكد حباً ، لن تقيم بناء ولن تنقذ شجرة» .

أفتح فمى ... أحرك شفتىّ ... لكنى لا أسمع صوتى ، فلم تخرج الكلمات من حنجرتى .

حدث فى الميدان

بدأ الزحام يتوافد على الميدان فى بطء واثق ، يعلم أن هذا المكان قادر دائماً على إستيعاب بل ابتلاع ومضغ وهضم أيضاً أى كم من الأشياء قد ترد عليه ، سواء تخفت فى ملابس آدمية تطل منها رؤوس حليقة أو ذوات شعور طويلة ... أو حصنت أنفسها بهياكل معدنية متفاوتة الأحجام والألوان ... أو حتى اكتشفت طريقاً للفرار السريع على عجلات لا سمك لها يذكر ، كلها فى النهاية ستضيع ملامحها وتصير مجرد أشياء يمكن أن تنحشر فى تلك المعدة المطاطة بسهولة .

نوع من جلسات العلاج النفسى الجماعى اليومى ... المجانية ... غير المرتبة تحدث فى تلك المساحة الضيقة على اتساعها ، تتعرى فيها النفوس البشرية ... تُخرج مكنوناتها بشكل تلقائى .

أحدهم تصور أن له دوراً هاماً لا يغفل فى معالجة وترتيب وتعليب تلك الكتل المتحركة ، بل وتصديرها أيضاً إلى أماكنها الصحيحة ، فأخذ مكانه فى منتصف الميدان . وكمايسترو محترف بدأ يرفع يديه الاثنين فى الهواء ، يشير بواحدة ناحية اليسار مرة ويخفض الأخرى تجاه اليمين مرة أخرى ، يوزع ابتساماته الراضية على من يتبعون إشارته ، ويصب جام غضبه وسبابه على من يخالفه ، والحقيقة أن أحداً لم ينتبه

لوجوده على الإطلاق ، فأكثرهم كان همه الأكبر أن يجد مكاناً على الأسفلت لقدمه التى ارتفعت عن الأرض فى نقلة حتمية للحركة ، وفى أقل من ثانية سُرق الفراغ من تحتها .

لم يمض وقت طويل حتى اكتمل العدد تماماً ورغم ذلك لم يفكر الميدان فى غلق أبوابه أمام الوافدين الجدد فلا مانع لديه من التغاضى عن شيئين أوثلاثة إذا ما اضطرته الظروف لذلك .

على دكة معدنية رفيعة جلست سارحة ... محشورة بين أكوام من اللحم المنتظر ، يراقبونها بنظرات لها معان مختلفة ... نساء لا يعرفنها تنطق عيونهن بالحقد المغلف بابتسامات صفراء ، سهام رجال تخترق حدودها سددت من حدقات زاد من اتساعها شعور بعشرة حظوظهم ... توثب كلاب حراسة تطل من زفرات شباب جاهزة لاغتنام فرصة يثبت فيها حرصه على الأخلاق ، ويحصل على وسام الشهامة منها !

بينما تسمرت عيناها هى على صورة بطلة أحد الأفلام الملصق إعلانه على الحائط المواجه للمحطة ، بحجم من الصعب تجاهله ، البطلة ممدة فى دلال بنصف ثوب يعرض مفاتنها بغير خجل ، مطوحة بذراعيها إلى الخلف فى إسترخاء يدل على إنتهاء مشاكل العالم من وجهة نظرها ، منفرجة شفتاها نصف انفراجة مثيرة ، ومن حولها وجوه لثلاثة رجال يبدون وكأن لاشاغل لهم فى الحياة سوى إرضائها ، أو السير تحت إمرائها .

يدور منولوج تؤكد به لنفسها : « ليست أجمل منى أبداً .. بل إنها حتى لاتقارن بى ... هاتان الساقان مرسومتان رسماً ينطق بالكذب ،

أذكر شكلهما جيداً فى فيلمها السابق ، كانت نحيفتين يعلو كعبهما من الخلف عظام طويلة بارزة مُعيبة ، وذلك الفم المثير يُخالف الحقيقة فحجمه ، كان أضعاف ما هو فى الصورة » .

تسائل نفسها بفضول : لماذا وكيف أصبحت بطلة مشهورة ؟ » .

تكمل الحوار الداخلى : « على أى الأحوال أنا لا أطمح فى أن أكون ممثلة » .

يشد انتباهها ... يجذب كل الأنظار من حولها للحظات ، صوت فرملة قوى لإحدى السيارات ... فى دقائق تحتشد الجموع نافضة يدها من أهدافها المقصودة ... صانعة دائرة نصف قطرها عشرون متراً على الأقل ... تنزل من السيارة سيدة تبدو وكأنها « ركلام » متحرك للثراء والأناقة ... تبدأ معركة كلامية بينها وشخص ما من محاربى السير القدامى كادت أن تريحه من عناء الحياه لولا معاندة القدر له .

وإذا بصاحبتنا تعتلى الدكة المعدنية ... يتوه منها أهمية الحدث ، ينقطع شريط الصوت لديها وتتفرغ حواسها تماماً لمراقبة الصورة التى أمامها بدقة متناهية .

سيارة سوداء لكنه ليس السواد الذى تعرفه ، إنه سواد جديد لامع غريب ، تغطى سقفها وجوانبها مساحات كبيرة من الزجاج الغامق ، ويطل من داخلها صالون أبيض يعادل فى إتساعه صالة البيت الذى تسكنه ... على حافة الباب المفتوح زحفت نظراتها على اليد الملقاة فوقه بادئة بالأظافر الطويلة المهذبة الملونة بلون البرتقال الطازج ، فالأصابع الناعمة المحزمة عند نهاياتها بمكعبات ومستطيلات تعكس كلما حركت

يدها حركات بطيئة محسوبة ، بريقاً يُحدث زغللة مبهرة ، بتلقائية حولت بصرها إلى يدها المضمومة على المنديل الباهت لثانيه ، ثم إلى أعلى ليسرح من جديد على الخصلات المُلتزمة جداً بأوامر مصففها والتى تنام كل منها إلى جوار الأخرى بلا حراك ساعد عليه هدوء انفعال صاحبتها رغم ارتفاع الأصوات من حولها .

تنقلت عيناها فى الكدر ... مسحت الصورة مسحاً ، وخرجت بنفس النتيجة البديهية بداهة ظواهر الطبيعة الثابتة ، فكما دائما تظهر الشمس نهاراً والقمر ليلاً ، دائما هى الأجمل رغم كل شىء .

على مقربة منها وقف وقد استحال كل جزء منه إلى عيون مفتوحة عن آخرها يتأمل بياضها الوردى الذى لم يصنعه غذاء ملكات النحل ، ولا الوجبات الثلاثة مستوفية الشروط ، جسدها البض المتناسق دون حاجة لحزام يشد الوسط وحمالة ترفع الصدر ، خصلات شعرها الطويلة المتمردة التى تعكس على سوادها ضوءاً من الحمرة الداكنة ، خضرة عيناها اللتان أستوطنهما لون حقل أخضر فى موسم الربيع ، وما تبقى من مقاييس ڤينوسية حتى استدارة الوجه ، مؤيداً طموحها الذى بدا لا حد له ، رغم يقينه من استحالة وجود مكان فيه لمن هو مثله ، مكتفياً بتمنى لحظات إقتراب إضطرارية قد تجمعهما بعد قليل ، وربما تبادل معها بعض الكلمات التى قد يفرضها توحد الموقف .

تهمس لنفسها « هكذا أحب أن أكون .. هانم .. كهذه السيدة » .

من خلفها تنبهها فرملة أخرى تتقدمها زوبعة ترابية تزاحمها دوائر دخان رمادية آتية من الشكمان العجوز المتشبث بصعوبة بمؤخرة الأتوبيس ، بسرعة يبدأ المنتظرون على المحطة فى التحرك ...

الصعود ... التسلق فى شبه حرب سلمية متفق عليها ، يتخبطون فى جو من الود المفتعل ... تبقى مكانها تراقب بإشفاق على نفسها الدورة اللا إرادية لتحول البشر من أشكال صحيحة منفصلة إلى كتلة هلامية لا ملامح لها .

تتذكر منظر عجين كعك العيد فى الطشت الواسع ويد أمها السمينة وهى « تلته » قبل « تقريصه » ... تبتسم للتشابه العجيب ونظراتها غائبة فى لا شىء ... تقرر : « لن أصعد فى هذا الطشت ، لن أتبطط كفطيرة .. لا مكان لى هنا ولا فى المصنع ولا فى هذا الميدان بأسره » .

يسبقها محاولاً تحقيق أمنيته بإيجاد فراغ يحجزه لها ... يكتشف إستحالة رغبته البسيطة ... يتشعلق مستسلماً ... يرمقها وهو مُدلى من طرف الباب ، معلق من إصبعين إثنين فقط ... تخدعه النظرات غير المقصودة ... يمسك بالإبتسامة التائهة يدفعه الأمل لأن يقفز مع بداية تحرك الأتوبيس ، بحركة إستعراضية نصف دائرية يصبح على الأرض .. يتلفت ، يبحث عنها ... بصعوبة يرى جزءاً من ظهرها ويختفى بين أطنان من الأشياء التى يمضغها الميدان .

أضغاث أحلام

حُلم مـجنون ينتـشلنى من واقـعى ... يحـملنى على لوح خـشبى سميك له لون البن الغامق ورائحة العنبر ... يتهادى بأمان غير مبرر وسط محيط ما .

شعور غجرى يجعلنى أتبرأ من رغبتى فى سقف يحمينى ... جدران تحتضنى ... يجعلنى أتجرأ على خوفى من لا نهائية المساحات الزرقاء فوقى ... تحتى ... من حولى .

أتخفف من بعض ملابسى ، أرفعها راية لوطنى الجديد ... إعلان عن بدء زمن حريتى .

أتمدد فى سعادة طفل تحرر من لفائفه ... فى انبهار أول من أتى إلى الدنيا ... أو آخر من سيرحل عنها .

تسحب خيوط الشمس الراحلة معها أحداث داخلى تعنونت بالذكريات ، دائماً وجود الآخر بأيامى كان يسبب لى تلك الغصة فى حلقى ، إحساس سكر محترق تنسينى لذوعته كونه فى البداية حلو المذاق فلا أستطيع اجترار المزيد .

ربما كان الخطأ فى حاسة تذوقى !! ربما فى طريقة ابتلاعى ردود أفعالى !!تتبخر تلك اللذوعة المسكرة من أماكن متفرقة من جسدى يصعب عليّ رصدها ... تتكوم ... ترتفع ... تعجز عن التحليق فى الهواء ... تسقط فى الماء وتمتد يدى تدفعها إلى أسفل تساعدها على الغرق .

يأتينى خبر يزعجنى « الليل قادم إليّ » ... لا أريد زواراً يعدنى هدوءه بالتزام الصمت ... يلوح لى بهداياه ... مصباح كبير من الفضة وثوب مرصع باللآلى ... يهمس فى اقترابه « زيارة قصيرة وفى الصباح أرحل » . على عكس ما توقعت من نفسى ، به أرحب .

لم يعطنى أحد هدية من قبل ، وماهرة كنت أنا فى المنح ... أياماً طويلة قضيتها فى البحث عن هدايا لها خصوصية التفرد .. عشرات من الأوراق المزركشة ابتعت ... أمتاراً من الشرائط الملونة تفننت فى لفها حول علب صغيرة ... كبيرة ... مستديرة ... مستطيلة وأيامٍ طويلة إنتظرت مفاجأة أن يدق بابى فأجد من يحمل لى هدية !!

وأبداً لم يدق .

ها هو زائرى يرحل ... لقد مل منى سريعاً ... أعلم أننى مُمله بقدر ما أنا ملولة .

أيها الليل أفعل ما شئت ... أرحل وقتما تريد وعد إذا ما أحببت فأنت هنا على أرض الحرية ... حرة أنا ولزوارى الأمان إذا ما مارسوا حرياتهم . لا مكان على هذه الأرض الجديدة لأساليب القهر أو لمن انتهت عليها عبودية الاعتماد النفسى أو المادى على الآخر .

يزيح الصباح ما تبقى من غلالته الرمادية ويطل أبيض ناصع البياض معبراً عن نفسه بوضوح ، تمنيت أبداً أن تأتنى الشجاعة لممارسته .

اليوم فقط أشعر أننى ند لنقائك أيها النهار الجديد .

جيران من بلد بعيد يلوحون لى بأجنحتهم دون تطفل يدفعهم لإبطاء الحركة ومراقبة أحوالى ... بنشوة أرفع يدى أرد تحيتهم .

يدب النشاط فى الزرقة من تحتى بضجيج هادىء يعلن بدء يوم جديد من المؤكد أنه لا جرائد تباع فى تلك البلدة المائية ... لن تصلنى هموم « الآخر » معبأة على وريقات فى ثمنة سوداء تترك آثارها على قلبى قبل يدىّ ، لن يحمل لى أحد فوارغ طلقات مهما بَعُد مكانها عنى ترتد إلى صدرى وتوجع قلبى .

لا شيء مما أكره هنا ، فقط كل ما أحب ، هدوء تقت إليه من زمن يغمرنى ... يفيض من حولى .

الشمس ترسل لى برقية صفراء تحمل تحية الصباح الدافئة ... تؤكد لى حريتى فى أن أدير عنها وجهى إن أردت ... أستدير أحتضن أرضى الخشبية ...أغمض عينىّ ... لحظات ثم ... يهاجم متعتى « الآخر » ... زحام ... صخب ... أجراس كأنها سفينة ضخمة تقترب منى ، يعج سطحها بالحركة والضوضاء ما الذى أتى بهم ؟؟ أيظنونى وحيدة تغرق ؟؟ ألا يرون أننى لتوى قد نجوت ؟ .

أعتدل على ظهرى ... تنتبه حواسى ... بعيون نصف مفتوحة أرى الصغار يتعاركون فوق رأسى ... إبنتى الشابة تعبث بأدراجى ، تبحث

عن شيء مـا ... أى شيء شـريطة أن يكون يخـصنى ... زوجى يردد اسـمي من مكان مـا خـارج الحـجـرة بشكل مـتـواصل له نفس الوتيـره كصفارة إنذار ... جرس الباب يدق بإلحاح ... الهاتف لا يريد أن يوقف رنينه أحد ، وأتذكر موعد أمي مع الطبييب ووعدى باصطحابها إليه .

ألملم أطياف « حُلمي » ... أحاول الإحتفاظ بها ، تخبئتها تحت وسادتي فتتبعثر تحت قدمي صغيرتي التى تتقافز على السرير الين قفزات قصيرة متكررة منتظمة ، ويطيح بما تبقى الهواء الضعيف الذى تحدثه قدماها الصغيرتان فى الصعود والهبوط أستعين ببقايا إحساسى السعيد على النهوض من الفراش لمجابهة الواقع ، فأشعر بغصة فى حلقى ... إحساس سكر محترق تنسينى لذعته كونه فى البداية حلو المذاق ، فلا أستطيع اجترار المزيد .

تشرب شاى

كان يعلم أنه من الذكاء أن يتغابى أحياناً أو يتـغافل عن بعض الأمور التى لا حل لها .

لكنه اليوم يتقمصه مراهق عنيد ... تلميذ محدود القدرات لا يقبل التسليم بما هو مسلم به .

مُصِر على أن يفعل ما نوى عليه ... على عجل سحب قميصاً ما على نصف جسده وأدخل نصفه الآخر فى أول ما خرجت به يده من صوان الملابس .. استخدام أصابعه فى تمشيط شعره القصير وهو يهبط درجات السلم قفزاً تسبقه عبارات يؤكد بها لنفسه صحة تصرفه « أليست هذه هى وظيفة الشرطة ؟ إعادة الحق الضائع ... القبض على اللصوص ... توفير الأمان ؟ ألست مواطناً له حقوق فى مقابل ما يؤدى من وجبات ؟؟ » .

قاد سيارته إلى أقرب نقطة شرطة ... دخل مهرولاً ... اتجه إلى حجرة أعلى رتبة موجودة وهو يردد لنفسه « الأمر ليس هيناً على الإطلاق » .

وقف أمام ضابط يقاربه فى العمر تقريباً ... لم يقدم نفسه له وإنما طالبه مباشرة بالقبض على اللصوص ، لم يزعجه البرود الذى قُوبل به ولا رنين الهاتف الذى مسح الكلمات الأخيرة من بلاغة ... احتفظ بحماسته كاملة وهو يراقب اليد التى تلتقط سماعة الهاتف ببطء متعمد وهو يسمع ردود شكلتها مفردات رجال الشرطة المحفوظة ... طالت وقفته فقرر أن يقدم لنفسه مقعداً ، اختار المقعد المواجه للزاوية التى يتأرجح فيها الضابط بكرسيه حتى لا ينسى وجوده .

بعدما أنهى المكالمة ... أشعل سيجارته بعد محاولات متكررة مع ولاعة رخيصة فارغة من الغاز ، وأخيراً ألتفت إليه . بإصرار متجدد كرر هو « أريد سنوات عمرى المسروقة » تأمله الضابط بقرب واضح وأسقط من بين شفتيه عبارة واحدة متحدية ...

« أفندم يا حضرت » صاحبها ارتفاع لأحد حاجبيه ينذر بالشر . وشوش نفسه « من حقه أن يعرف ملابسات الموقف » وبصوت مسموع بدأ يتكلم . يا سيدى المحترم ...

أنا مواطن مصرى ... فلاح من الشرقية ، أتممت تعليمى هناك وأتيت القاهرة وأنا أملك من العمر عشرين عاماً ... استيقظت اليوم على هاتف ليخبرنى فيه أحد الأصدقاء « إن جازت تلك التسمية » بطريقة مواسية ومهذبة أننى قد أتممت عامى الأربعين .. فى أول الأمر لم أصدق ، أغلقت الهاتف وبدأت البحث الجاد فى كل ما أملك ، قلبت شقتى رأساً على عقب ، وأخيراً وجدت بطاقتى منزوية فى خجل فى أحد الأدراج ، تأكدت من صحة الخبر فإذا بى أكتشفت السرقة .

عشرون عاماً من عمري هنا بالقاهرة والغريب أنهم لم يستطيعوا أن يسرقوا سوى نصف عمري الأخير فمازلت أحمل سنواتي العشرين الأولى بتفاصيلها ، واضحة تماماً ، يسهل عليّ استحضارها والإمساك بها ، عدها ، بكل عذاباتها وكل جمالها . مازلت أحتفظ في ركن ما من بؤبؤ عيني بلون خيوط فضية تنتشر ببطء وهدوء مع صوت آذان بعينه .. أستطيع أن أحس برودة أرض طرية مبللة تحت قدميّ ورائحة زرع أخضر ممتد ، طالما تنعمت بالنظر إليه والغوص فيه واللعب حوله ، ما زال لرائحة شاى الأمس بلونه الأحمر تميزها . أذكر أيضاً قدوم العيد ببهجته ، صوت الست أم كلثوم فى بداية كل شهر وتجمعنا حوله ، حتى أول علقة من أمى أخذتها أذكر سببها ووجعها وبسهولة من يقلب فى صور أمامه ، أرانى وأنا أخطو على سلم الرجولة والنجاح عاماً بعد عام وفى الخلفية تفاصيل وجه أسمر له طابع حسن ونظرات خجلة شقية ، نصف عمرى الأول معى ، محفور بذاكراتى ، مضفر بعقلى ، معجون بروحي لم يتمكنوا منه .

أرجوك لا تظن بيّ الظنون أو تتهكم عليّ فتقول أن كلنا سرق منه عمره ...

أو أنها غلطتى ، فأنا واثق أنها لم تسرق فى غفلة منى ، أو أثناء نومى ، بل أستطيع أن أؤكد لك أننى لم أستغرق فى النوم من مدة طويلة جدا ... لقد سرقت وأنا صاح وربما فى وضح النهار أيضاً فى وسط الزحام ، مثلاً فى أحد الشوارع أو المواصلات ... ربما وأنا منهمك فى عملى المتواصل ، يمكن فى أحد جلساتى مع من اتفق على أن نسميهم أصدقاء ، وقد يكون وأنا مذهول أمام التلفاز أستمع إلى أخبار الجنون الذى اجتاح العالم أخيراً .

أما المدهش حقاً يا سيدى فهو أننى ليس لدىّ أى شىء يثبت إنها كانت ملكى . لا ذكريات أحملها لها .. لا أوراق تثبت ما أنفقته فيها ... لا معايدة ولا خطاب يذكرنى بأحد أيامها ... لا حب أحدد به تاريخ فيها ، ولا أغنية عالقة بذهنى تسجل حدثاً مر بى ، لا نصيحة ما زلت أذكرها لأحد ، لا موقف شهامة ... لا لقاء حار وحضن دافىء ولا وداع دامع وأياد تقاوم الإفتراق ،

سُرقت ولا أعرف حتى من أتهم !! مرت فترة صمت بعد أن أنهى حديثه ، خيل إليه فيها أن من كان يحدثه غائب تماماً عن الجلسة ، سارح بعيداً عن الموضوع ، دق جرس الهاتف مراراً دون أن يحرك يده ليسكته .

وأخيراً تحركت يده لتعبث داخل جيب سترته الميرى ثم تخرج بحافظة سوداء لتنتقى من بين أوراقها ورقة قديمة نسبياً ، خشنة الملمس تميل إلى الإصفرار ، فتحها على مهل وبعد أن ألقى نظرة سريعة عليها ألقى بها باهمال على المكتب وإنفجر فى ضحك تخلله كلمات ودودة تسأله : تشرب شاى ؟

سوء حظ

همت يده أن تمتد إلى غلاف من الجلد رفيع ، محاولاً أن يُرتق به ثقوب ليلة البارد ... آملا أن يحجب بما يحويه ظلمة كست زوايا الحائط فى الحجرة الضيقة ... أن يغزل بحروفه فوق العيون التى يخالها تطل عليه طوال الوقت من الطاقة الصغيرة قرب السقف خيوط دفء تكسر حدة نظراتها ، تحيل سوادها إلى لون آخر ، ربما إلى الأخضر ، كم يتوق إلى اللون الأخضر ، أيمكنه أن يستبدلها بعيون خضراء متعاطفة ذات أهداب نصف مرخية ؟ يبتسم بسخرية لسؤاله ، لكنه يمضى فى وهمه فينفض أجزاء متفرقة من ملابسه ، يرسم بحركته هذه أشكال إحساس فاتح اللون مختلف الإيحاء .

ثم ... يلم قبضته وبحدة يلكم الهواء ،يعترف ...

« محاولات فاشلة لاغتيال ليل يقظ يُعتم نفسى ... يسكن أيامى من طلعة النهار إلى النهار التالى ، هذا إذا أدعيت أننى مازلت أشعر بتعاقب الليل والنهار » .

تنفرط أحزانه منه ... تتدافع إلى الأرض راسمة دائرة حوله ، تحاصره فتزيد من صغر المساحة الضيقة ويكاد يختنق .

تتوسل يده المساعدة مرة أخرى فيمدها ليحارب غربة المكان بأحد الكتب التى أتته بها لتساعده على سرعة إنقضاء أيام لا يعرف كم سيطول عده لها ... يرن صوتها بأذنه :

« فالتنعم مؤقتاً بحرية الخيال » ... كم هي طيبة ... صدقت براءته أو على الأقل تظاهرت بذلك ، وهل كان لديها بديل تصون به كرامتها ... رتبت له ملابس نظيفة ، علب سجائر ، مجموعة من الكتب ، ناولته الحقيبة الصغيرة ، شدت على يده وبنظراتها هربت بعيداً .

على أى الأحوال وأيما كانت نيتها ، موقفها هذا معه يؤكد له جرمه ويحكم على ضميره بمائة جلدة كل ليلة .

يبتعد عن الحقيبة المحبوسة معه ظلماً ، بعد أن يكتشف أن كل أغلفة الكتب بها مكسوة بالجلد الأسود ، باردة الملمس ، فكيف للبرودة أن تمنح دفئاً .

يلعن أيامه ... يصرخ فى الصمت « حظى العثر » قادنى إلى حيث الجحيم وببساطة رحل ... لو فقط أراه ، لو أستطيع الإمساك به ، لو كان رجلاً . لكنه ليس أكثر من سراب يتحدث البعض عنه ، يؤكد آخرون أنهم خالطوه وينفى معظمهم وجوده إنه أحد المفردات الموروثة مجهولة المصدر بسخرية يمط الكلمات بين شفتيه متسائلاً أهو الحظ ؟

ترتبك الأفكار برأسه ، تدارى تخبطها وراء فكره تريحه للحظة ثم تغضبه بشدة « السذاجة » يتعجب بصوت مسموع « أساذج كنت فعلاً !! تعديت العقد الخامس وساذج أنا !!

أليس نوع من البلاهة أن أحمل مثل عمرى وأكون ساذجاً !!

لا بـل « الغبـاء » غبى ولست ساذج فالغبـاء ليس بـذنـب ، ولا يخصنى وحدى ، كل منا بـه نسبة من الغباء وعـادة ما تظهر لنا وقت أن نكون فى أشد الحاجة لطاقة ذكائنا كاملة .

تغلبه ابتسامة ذات معنى « أليست فضيحة حقاً فى عالم الرجال أن تقودنى نزوة إلى حيث أنا الآن ، صحيح شر البلية ما يضحك » تختفى ابتسامته فجأة ويحتل الغضب كل حنجرته « منتهى الظلم أن أكفر عن إثم ليلة عابثة واحدة بشهور من عمرى ... أوحدى شذذت عن قانون الفضيلة الذى يحكم حركة الكون من حولى حتى أذبح عند أقدام هيكلها ؟؟ هل انتهى الفساد من الأرض والحل الأمثل فى حالتى أن أصلب حتى أكـــون عبرة لغيرى ممن تسول لهـم أنفسهم تدنيس طهارتها ؟؟

لا ... لا ... الأمر غير ذلك ... يمكننى تلخيصه فى كلمتين أثنتين فى عوده لا بديل لها « سوء حظ » .

– يتوه فى اللازمن حتى ينذره زعيق حركة الحديد الصدى باقتراب اللحظة الحاسمة ... يستسلم ليد تقوده ... يحاول ترك همومه ومخاوفه بالداخل وهو يفارق الحجرة السوداء ، يتلكأ الحارس فى غلق الباب خلفه ، فتتبعه بإصرار تتشبث برجليه ، تعوق حركته فيترنح فى سيره .

ممتلئة القاعة عن آخرها ... لا يستطيع تمييز أهله ، معارفه ، أصدقائه من بين الموجودين ... فقط يراها هى جالسة هناك بعيداً تقطر قلقاً ، تحمل عيناها نفس النظرات الزائغة غامضة المعنى .

إلى جواره تجلس الأخرى ، يشع من جسدها الذى أحسه يوماً ما

« ناراً » بخاراً بارداً كأنها لوح من الثلج يكاد يجمد أطرافه ، يكومه ديكاً منتوف الريش فى طرف القفص ، ينتظر الانقضاض عليه . ترتفع أصوات ... تلوح أياد ... تهدىء حُجة مقنعة وجوه تعتلى منصة يحتل صدارتها الوجه الذى يملك كل أمره .

بعد دهر بحساب زمنه يصدر الحكم ... يعود الدم الهارب إلى عروقه ... تمتد إليه أيد تضغط على يده بحرارة ... تبحث قبلات عن وجنتيه من بين فراغات رفيعة لأعمدة حاجرة .

ولأول مرة منذ غاب عن البيت تلتقى عيناه بعينيها : تقتل نظراتها المحايدة فرحته بالبراءة ... تتساقط دموعها العاتبة ، فينهزم نصره ... تستدير لتنصرف من القاعة ، فيفجر شعوره بالخجل شراينه ويغمر اللون الأحمر جسده ، يفرج عنه ... يتقدم خطوات قليلة إلى الخارج وحوله بعض الأصدقاء ، متشوقاً لعناق ضوء النهار يُقبل ... يُسرع ... يبحث عنها ... لا يجدها ... يشعر بقدميه تتحركان بحرية على أسفلت الطريق المفتوح أمامه ، إلا أنه يكتشف أن السواد قد قطن داخله ... سكن روحه ... القضبان ما زالت تحيط بجسده وأن كانت ملابسه تخفيها عن العيون .

وجدتها

شيء ناقص ... مفقود ... ضائع منى .

أحاول تصوره ... تحديد هويته ... معرفة كنهه ولا أستطيع .

شيء غامض « ككلمة سر » ، أو مفتاح سحرى قادر على فتح كل الأبواب المغلقة ... كلها على الإطلاق .

ربما وصية من الوصايا العشر تائهة عن بالى وأعلم أنه يجب علىّ تذكرها حتى يكتمل إيمانى !!

يمكن أن تكون كلمة سقطت من قاموس لغتى تتمم معناً هاماً أحتاج إلى فهمه ؟ لا أعرف !!

لكنه بالتأكيد شيء هام جداً ، وإلا ما كنت أظل أبحث عنه طوال الأسابيع الماضية وإلى الآن ... وإلا ما إنتابتنى هذه الحالة من عدم الاتزان والشعور بأن هناك خللاً بشكل ما فى حياتى .

أذبت قطعة الصابون من كثرة ما أدرتها بين راحتى ، تجمعت بالونات ملونة داخل كفى ، تعلقت بهما من أسفل وإلى أعلى تسلقت معصمى ، أعدت تنظيف وجهى مرات ومرات وكأننى أبحث عن شيء ما قد أختبأ تحت طبقات جلدى ، لكنى لا أجد شيء .

أخرجت محتويات أدراجى كلها ، فتشت فى الأشياء جميعاً ... فتحت ثم أطبقت عشرات الأوراق بلا جدوى .

كتاباً كتاباً تناولت من المكتبة قلبته بعناية ثم أعدته بلا فائدة .

طفت بأركان المنزل ... بحثت خلف البراويز المعلقة بالحجرات ... تحت السجاجيد المفترشة الأرضيات ... بنظرات حادة مسحت زوايا الحوائط عبثاً .

ككل صباح باكر أنتهى من دورتى التفتيشية اللامجدية .

أرتدى أحد الثياب التى خصصتها للذهاب للعمل ... أصفف شعرى بنفس الطريقة المعتادة ... أدلق فنجان قهوتى الباردة داخل جوفى على مرة واحدة ... ألتقى بأطفال جارتى على السلم فى طريقهم إلى المدرسة ، أبادرهم بتحية الصباح السريعة ويردونها كما وكل يوم بالابتسامات الحذرة والهمس غير المسموع .

أمام سيارتى أشعر بلسعة برد ، أنظر حولى فأتأكد أنها لاتعترى أحداً غيرى ، فالشتاء مازال فى بداياته والملابس الثقيلة لم يفرج عنها أحد بعد ... أستقل السيارة ... أحكم إغلاق نوافذها وأنطلق .

عندما تدق الثامنة تماماً أتوقف أمام إشارة المرور الحمراء ، وفى الثامنة وثمانى دقائق أقف بالاشارة الثانية وعند الإشارة الثالثة أصبح على بعد بضعة كيلو مترات من مكان عملى .. فى دقائق الفراغ القليلة فى مكتبى أنتهز الفرصة لأعاود البحث من جديد ... أقلّب حقيبة يدى وأحرص على فتح سوستة الجيب الداخلى ، ثم أعيد محتوياتها

يائسة ...على شاشة الكومبيوتر أبحث ... على الأرفف ، بين الملفات ، ولا أصل لنتيجة، .

- أعاود العمل وبعد الإنتهاء منه تتكرر طقوس العودة بمواعيد إشارات التوقف الحمراء المنتظمة ، فالإلتقاء بأطفال جارتى ، ثم تنتهى بإغلاق باب البيت خلفى من الداخل .

أمام الثلاجة أقف لأخرج شيئا أ أكله فتدور عيناى فى جوانبها بغير هدف ، تضرسنى البرودة الصادرة منها فأغلق بابها سريعاً .

- على الفراش أتقلب مستجدية دقائق من النعاس تهدينى بعض حلم قد أجد بين طياته ذلك الشيء الغائب عنى فلا أنجح . أمسك بنوتة التليفونات ، جميع الأرقام التى أعرف أهاتفها ولا آتى بجديد يريحنى.

- فى المساء ألبى دعوة للعشاء كنوع من الهروب من ذلك التشتت الذى غزا كل أوقاتى أخيراً ، عندما أصل إلى مكان الدعوة اكتشف من ملابسى أننى الوحيدة التى اعترفت بالميلاد الشرعى للشتاء قبل الموجودين جميعاً .

بين الوجوه أبحث ... خلف النظرات ... فوق الشفاة ... فى أصناف الطعام على المائدة ... لم يبقى إلا أن أنحنى أمام المقاعد وأعرى أرجل الأرائك لأبحث تحتها ، قبل أن أفعل أنسحب عائدة إلى بيتى .

فى الفراش أسمع رنيناً متميزاً للهاتف ، فإذا بموجة حارة تجتاح جسدى فأنفض الأغطية عنى ... نشاط مراهقة يدب فى أوصالى

فأركض ... وبمشاعر راهبة لتوها تركت الدير ولأول مرة ستلتقى برجل .
أترجم ذبذبات صوت الرنين إلى رسالة قصيرة ، بسيطة ، حارة تقول أنه هو لقد عاد .. أطير إلى الهاتف ... أخطف سماعته ... أسمع صوته .. أهتف بينى ونفسى بالصيحة الشهيرة لأرشميدس :
« وجدتها .. وجدتها » وأكف عن البحث .

اليوم الخامس

ينقطع التيار الكهربائى فجأة عن المكان فأشعر بضغطة تلقائية من يد جوارى تنشد أماناً غير كامل الغياب ، فالشاطىء أمامنا وعلى جوانبنا عامر بالحركة . وإن كانت هادئة ... تحرك مقعدها الكبير المنغرس فى الرمال بصعوبة لتلصقه بمقعدى ، فأمد يد المساعدة لها ، راضياً تماماً عن إحساسى باعتمادها النفسى على ، منتشياً بنجاحى فى تحقيق الأمان لها طوال مدة ارتباطنا وإلى الآن .

هادئاً أراقب حركة الموج الثارة وهو ينسحب منهزماً فى سرعة إلى الداخل فيجعلك تشك فى قدرته على العودة قوياً ، هادراً ، فائراً من جديد فإذا به يعود محملاً بصخب الحياة مرة أخرى ، موحياً لى باستعادة الذكريات البعيدة بإنفعال محايد ، فإذا بى أفعل .

فى نفس الموعد من كل شهر ولمدة نصف عام تقريباً ... كان يحاط فراشى بعدد كبير من الأهل والأصدقاء أناس تجىء وآخرون يذهبون ... قطع من الشيكولاته توزع ... أكواب ماء تدور بين حين وآخر ... كلمات تشجيع تشكك فيها عيون بائسة تعلوها ... ابتسامات مترددة بين الإتساع والضيق ... دموع تستخفى خلف منديل ورقى يجفف عرقاً

لا وجود له ... أحمر شفاه فاقع اللون يؤكد لى أن الأمر أهون بكثير مما أظن وأغالب أنا قهرى بحمد الله على كل شىء وتتقلب مشاعرى بين الإمتنان الحقيقى والسخرية الخجلة ... أسائل نفسى فى صمت « أحقاً يشعرون بما أنا فيه !! وبعد دقائق سيخرج كل منهم ليمارس حياته بشكل طبيعى إلى أن يحين موعد واجب زيارتى ؟؟ أكوم كل عبارات المجاملة ، أصغها جنبا ، وأصدر حكمى الجاحد الصادق ، لن ينجح أحد فى الاقتراب من إحساسى بعمق الألم مهما حاول ، فالمسألة شبه مستحيلة التصديق كالأساطير الخرافية ... شديدة الوعورة كالعسس فى مغارة مظلمة صخرية الحوائط ملساء الأرضية ، تتلوى على نفسها فى حيرة كالتائه بين بلاد غريبة ... شىء كالقفز فى بئر عميق عميق بلا قرار تستحيل حلزونية عمقة كلما نظرت إليه إلى ساحة موت شيطانية ليس لها نقطة نهاية . انه كالاقتران بجنى كافر غذائه ناراً ومتعته سحب الأرواح من الأجساد حتى يتمكن منها الفزع تماما فيرجعها إليها ليتلذذ بمعاودة تعذيبها من جديد .

وبعد ما يذهب الجميع وتهدأ الحركة فى الغرفة ... تهدهد ضعفى آيات قرآنية أحسبها آتيه من بعيد رغم الشفاه التى تتحرك جوار أذنى ، تتشبث نظراتى الوهنة بظهر قميص ابنى الوحيد ، أتاكد من أن جسده المبسوط كاد أن يقارب الحافة العليا لصوان الملابس فتنتابنى راحة مؤقته ، يستدير مفتعل ابتسامة مطمئنة تحيل على الفور اشفاقى الشديد عليه إلى حركة فأعتدل فى الفراش فى نصف جلسة أؤكد بها له أن دورى لم ينته بعد ... ثم مستعينا بالله اكتم صرخة وجع ليس من حق رجولتى إطلاقها ...

فـأغلق عـيني ، ورغـمـا عني كـمـا كـان يحـدث لـى دائمـا فى ذلك الوقت اسـتـحـضـر مـشـهـدا ، طالما تمنيت إسقاطه من خيـالى لكنه سكن بطانة جفنى ، تمدد على أهدابى ، فلا فـرار من التـحـامى بصورته وقتـها كلما أغلقت عيني طلبا لغفوة راحة مسـتحيلة ، فـأرى حجرة شبه مظلمة ... سرير رفـيع مـثبت على احـد جـوانبـه عـامـود كـصـارى سـفـينـة راحلة إلى المجـهول مدلى منه كـيس بلاسـتـيكى مملوء بمحلول مشبر مـهـيأ لاسـتـقبال كل أسـبـاب عـذابـى ... وأربـعـة أشـخـاص يجـمـع بينهم لون أبيض يغطى أجسـادهم ونظارات طبـيـة تعلن عن مـهـنتـهم ... كـومـة من العـلاجـات تختلف فـى الأحـجام والألوان ، فى النوعـيـة ، مـابين مـسـحـوق وسـائل ، حقن كـبـيـرة ومـتـوسطة وصـغـيرة تملأ وتـفـرغ فى جـسـدى بعضـهـا عن طريق سن رفـيع منغـرز فى احـد عـروقى الهـاربة بعـد الأمسـاك بـه والآخر فى ذلك الكيس المعلق ليـجـرعنى الويل قطرة قطرة سـائل أحـمـر بليـد غـيـر مـبـال يزحف ببطء فى أنبوب رفيع ضيق موصول بثقب مفتوح على دمائى .

يبـدأ بـعـدها الجنى الشـرير فى ممارسـة لعـبـتـه وأتوه بين النتـوءات الصـخرية الحـادة الجـارحـة فى المغـارة المظلمـة .. أهوى إلى بئر الموت دون أن أصل لخمسة أيام .

مـازلت أتذكـر حـــالى وأنـا أتصـبب عـرقـا وأنا افـتـح عـينى هربا للحـيـاة ، فـأجـد صـحـبـتى قـد انفـضت تمامـا الا من ضـوء واهـن منزو يشـبـهنى ، وناموسـتين تحيكان مؤامرة ضدى فى ركن ما بالسقف ، كوب مـاء إلى جـوارى ترقـد تحتـه سلة مـجهـزة لمحاولاتى أخراج الشـيطان من جوفى .

كان الهدوء من حولى يثير فى نفسى الإحساس بثقلى على الآخرين فأخافه ومن كل قلبى أرجو مجيئ اليوم الخامس .

تتلصص على عيون من فرجة الباب الموارب ، فأتقن دور النائم قابضا على قنواتى الدمعية بصعوبة هائلة ، تبتعد الخطوات عن بابى فأرخى قبضتى ليغرق وجهى .. جسدى .. فراشى ... الحجرة كلها ببكائى إلى أن تذهب بى غيبوبة التعب إلى حيث لا أدرى . يعيدنى صوتها إلى الشاطىء ، تداعبنى مؤكدة لى دون قصد ، أننى بكامل عافيتى الآن قائلة « على فكرة لن أصحو معك غداً مبكراً ولن أستسلم لإقناعك لى بضروره ممارسة تلك الرياضة الشاقة فلم تعد صحتى تتحمل صحوة شبابك هذه » .

يعاود التيار الكهربائى الإتصال ويسبح الشاطىء فى الضوء مرة أخرى وتتعالى صيحات الأطفال البعيدة الفرحة بعودة النور فلا أستطيع أن أمنع نفسى من مشاركتهم الصياح الفرح لانقشاع الظلام ، فتتفرس فى وجهى متعجبة .

عندما تتحقق الأحلام

الخوف يطبق بأصابعه على عنقى ... البساط ينسحب من تحت قدمى أهوى من إرتفاع شاهق ولاأصل للأرض أبداً .

أهب فزعة من نومى ... وأول ما يخطر ببالى أنت .

أجيل بصرى بالحجرة ، أتأكد من وجودى بها ، أتنفس الصعداء ، لم يكن إذن سوى حلم ... بل كابوس مفزع وأى فزع .

دقات الساعة تدعونى أن أعيرها بصرى .. أفعل أنها الرابعة فجراً ألجأ لعلبة سجائرى ، أشعل سيجارة أستأنس بدخانها من حولى . أحدث نفسى بصوت مسموع « هناك شىء ما يحدث » ذلك الحلم لم يزورنى من فراغ ... عادة لاأحلم أنا وإن فعلت لاأتذكر أحلامى إلا ذلك الحلم البعيد الرائع أبتسم إبتسامة طفل هانىء وأنا أتذكر كيف رأيتك بحلمى قبل أن ألقاك وكيف فسرت أيامى رؤيتى ... شىء مذهل أن تتحول الأحلام إلى حقيقة .

أتذكر أيضا أننى عندما حكيتك حلمي هذا بعد سنوات من علاقتنا لمحت بعينيك عدم تصدقى ، دائما تظننى ماهرة فى الكذب رغم أننى لم أرد أبداً أن أكذب عليك ولو أردت ما أستطعت وأن أستطعت ما فعلت .

سنوات عشر معك ... أحلى سنوات عمرى أهديتها لك ... عشتها بك عشتها بناموس يختلف عن ناموس البشر ... الزمن لدى له رتم مختلف عن زمن الآخرين ... الكمات عندى تحمل معان غير التى تحويها القواميس .

درجة حرارة الجو لها مقياس خاص ... للشمس شكل آخر غير متعارف عليه للقمر وظيفة أخرى غير وظيفته.، كانت كل الأشياء من حولى تحمل معانى شديدة الخصوصية .

سنوات عشر تعرفت على ملامح جديدة لوجهى ، تفاصيل دقيقة لشخصيتى نبرات متباينة لصوتى ، اكتشفت أن لدى قدرات خارقة فى التحمل وأصبحت بارعة فى العيش فى الوهم بواقعية تتحدى الواقع .

علمنى حبك كيف أكون امرأة وعلمنى أيضا كيف أخاف حتى الرعب مثلما أنا الآن ... أجزم أن شيئاً ما يحدث ، ذلك الإحساس يتملكنى منذ فترة ، أعيش القلق وأنكره ... أهرب منه فيلاحقنى ... أبحث عن علبه سجائرى وأشعل واحدة أخرى شاخصة أنا للساعة أسألها أن ترحم إنتظارى الطويل ... أخيراً أمسكها بكلتا يدى ، انتظرت أعواماً حتى تعلن السابعة ، ألقى بها وأجرى إلى الهاتف ... أدير أرقامه .

يرد أسرع مما توقعت فأبادره :

- أكنت تنتظر أحداً على الهاتف ؟

يجيب - من تقصدين ؟

- أنا التى أسأل

- أصبحت لاتجيدين غير الإستجواب هذه الأيام .

- هذه الأيام أتيت ببيت القصيد . ما الذى يحدث هذه الأيام؟

- الذى يحدث أن الملل يكاد يقتلنى رغم أننى مشغول جداً .

تعلو نبرة صوتى - مشغول بتلك الفكرة الغريبة . إعادة طلاء البيت ، مالذى يدعوك الآن لإعادة طلاء البيت ، ما الذى يدفعك لتغيير الأثاث كله ، منذ متى وأنت تهتم « بسر ما » تعلق على الحائط وسجادة تزين المكان ، ما الذى يجعلك تتحمس لشراء غسالة ملابس وطاولة مكوى ؟؟ عشرة أعوام لم يخطر ببالك شىء من هذا ، منذ عرفتك وأنت ترفض التغيير ، كانت أميز صفاتك الوحدة والكسل واعتياد الأشياء .

بإنفعال يسأل - أخبرينى أنت لما تقولين هذا الآن ؟ وأنت تعلمين بكل ما يحدث من تغير منذ أيام وأيام لم الآن؟

بضعف أجيب - لأننى الآن فقط تنبهت أنك تمسح سنوات عمرى معك تمحو الفصل الذى يخصنى من قصة حياتك ، أشعر أننى إحدى أشيائك القديمة التى تفكر فى تغييرها أيضاً .

يصمت فأصرخ - بالله عليك قل شيئاً يريحنى .

ببرود يرد - سأخبرك بكل شىء عندما أراك .

أقول - إذن سآتى إليك بسرعة يرد - لا ليس الآن بيدى لوحة أعمل بها فليكن بالمساء وكما تعلمين المنزل غير مهيىء على الإطلاق ليكن بمكاننا القديم فى السابعة .

يضع الهاتف ويضع حداً لشكوكى ، متأكدة أنا أن أرضى الصلبة التى كنت أقف عليها استحالت إلى رمال متحركة ، أحسها تشدنى داخلها ، تريد دفنى وأنا مازلت أتنفس ، وهو فقط الذى يملك أن يدفننى حية ... أرتعب من الفكرة ، لحظات أغيب فيها ثم أنتبه لقد تأخرت عن عملى ، فأرتدى ملابسى على عجل ... يتناوب كل من جرس الباب والهاتف الرنين ولا أجيب ... أعد قهوتى ، أدلقها دلقاً فى جوفى ، ساخنة تلسعنى تحرق حلقى ، أتجاهل إحساسى بالألم ، أو هذا يعد ألماً ... أحشر قدمىّ فى الحذاء أتذكر أنه كان أكثر إتساعاً بالأمس ما الذى يحدث لى أكبرت قدماى عن الأمس ، أشعر بأصابعى تستغيث داخله ولا أغيثها كأنها ليست لى ، أغلق الباب خلفى ، استخدم السلم بدلاً من المصعد أهبط ، أظل أهبط والدرجات لا تريد أن تنتهى .

داخل سيارتى أقرر الذهاب إليه ... لن أستطيع الإنتظار حتى المساء .

أعبث بالمفاتيح لأدير المحرك ، يشتبك مفتاحان ، أفض الإشتباك بقسوة ، أنظر إلى أحدهما إنه مفتاح عالمى كل عالمى ، أخرجه من سلسة مفاتيحى أضعه بكفى ، أخفيه فى يدى وأشعر بأسنانه تنغرس فى لحمى لكنى أظل طابقة عليه .

أقود سيارتى لتصلنى إليه ، أمام المبنى الذى أعرفه جيداً أقف أدخل ... برودة الفناء تلفنى ، ثم داخل ذلك الصندوق المعلق بحبال فى

الهواء أنظر في المرآه فأجد وجهى قد شطر إلى نصفين بسكين رفيع حاد جداً ، أتحسسه فلا أجد آثاراً لدماء ... أمرر يدى على المرآة ، أشعر بحد السكين عليها ويسيل لون أحمر بين أصابعى ... يتوقف المصعد ، أهرب منه ، ... أفرج عن المفتاح المخنوق داخل يدى ، أديره بالثقب يرفض الإستدارة ، أحاول معالجة الباب ، تيأس محاولتى أخرج المفتاح ملوناً بدمائى ، أتسمر مكانى غير مصدقة وكأننى أكتشف لتوى من القاتل فى الجريمة الغامضة ، تموت كل الإشارات الآتية من جهازى العصبى وتموت بدورها كل ردود أفعالى ... أتجمد مكانى ، أنظر للخطوط الحمراء التى عرفت طريقها من بين أصابعى حتى مرفقى ، أهوى من ارتفاع شاهق ولا أصل للأرض أبداً ..

ومن حولى أسمع صدى لكلمات تتردد داخلى « شىء مذهل - حقاً أن تتحول الأحلام إلى حقيقة » .

لم يحن الوقت بعد

طغى الصوت العالى لنفير الأبواق على الأحاديث الموزعة بين المجموعات الصغيرة المتفرقة المجتمعة فى بهو الفندق الواسع المعبق برائحة ورود الأفراح ، تسابقت الزغاريد مع دقات الدفوف تعلن عن مقدم العروسين اصطف المدعوون على الجانبين مفسحين عرض الصالة للموكب المنتظر .

اشرأبت رؤوس من صفوف خلفية غير منتظمة تتطلع لرؤية شكل العريس ، ثوب العروس ، تعارف الغرباء المتجاورين بتلقائية عن طريق تعليقات قصيرة غير مسموعة بالميل التبادلى على الأذان ، التقطت فلاشات الكاميرات الابتسامات الواسعة فوق الوجوه تؤكد بها تمام جو البهجة فى مناسبة الليلة ، تقدمت الزفة يسير خلفها صفان قصيران منتظمان بمساعدة أيد جانبية ، صفين من البنين والبنات يحملون شموع تكاد تقاربهم فى الطول يتقدمون بها الطريق أمام العروسين ، وصل الجميع إلى داخل القاعة ، إعتلت العروس « الكوشة » مستندة إلى يد عريسها واستراح هو إلى جوارها ، أستقر الجميع فى دوائر حول الطاولات وبدأ ضجيج الفرح .

- مبهورة بالحدث أجلس وكأنى لأول مرة أحضر حفل زفاف ...

مركزة عينىّ على الوجه المحاط بالطرحة البيضاء ... متابعة لفتاتها الخجلة السعيدة ، نظراتها وهى ترنو إليه بحب ... مراقبة يدها المغلفة بالقفاز الأبيض اللامع وهى تستجيب لنداء يده ، تنام داخلها فى هدوء أكاد أسمع صوت أنفاسها المضطربة ، دقات قلبها المتلاحقة ... أقرأ بعينها زهوها بكونها محور إهتمام الجميع فى ليلتها هذه ... ليلة العمر.

- مالت علىّ صديقتنا المشتركة تسألنى : أما زلت رافعة شعار « لم يحن الوقت بعد » ألا يفتح شهيتك للزواج هذا الزفاف الرائع ؟ ويجعلك تتخذين قرارك المؤجل ؟ يأخذها من الحديث معى زوجها سائلاً إياها عن طفلتهما تحول رأسها عنى إليه فيتوه من أذنى الحديث ، تتقدم من طاولتنا صديقتنا الرابعة لتشاركنا فيها ، تمتد يد زوجها من خلفها تحرك لها الكرسى لتساعدها على الجلوس بجوارى ثم يحتل الكرسى الملاصق لها ويحيط بذراعه ظهرها . نقطة على هامش أحد أضلاع المثلث أجد نفسى ... محاصرة بثلاث زوايا ثابتة مستقرة ... موقعى يدفعنى دفعاً لأن أفكر بحالى ،

يرتفع صوت العقل داخلى والذى أستوعب الدرس خزنه من طول ما شرحته لى أمى وأقنعتنى به : الحياة خليط من الرومانسية والواقعية فلا تدع مشاعرك تخدر عقلك فالواقع قادر على إفاقتك بعد وقت قصير ، أدير وجهى لجارتى التى تحدثنى فأرى وجه أمى تكمل حديثها : لن أنكر عليك حقك فى التفكير برومانسية بمثالية ولكن لا تنكرى علىّ حقى كأم فى تقديم النصح لك والاهتمام بأمرك ، أنه شخص عادى جداً ، لا يصلح لك ، محدود الإمكانات ، سيموت الحب فى تلك الشقة

الضيقة البعيدة فى ذلك الحى الشعبى الذى لم تتعوديه ، ستلفظ سيارته المريضة أنفاسها بعد عام على الأكثر وستضطرين لتبادل سيارتك معه ، سيظل « محلك سر » فى عمله وستلمعين في عملك المتميز ، والنتيجة الطبيعية أن يُسقط عليك كل عقد نقصه وتزداد المشاكل شيئاً فشيئاًحتى تستحيل الحياة بينكما .

- ضغطه على يدى تنبهى بمكر لإختفاء العروس فى صدر العريس وهو يراقصها ، تغيب خطواتهما المتوحدة فى الدخان عن عيونى فأعود لأمى مدافعة : وافقتك من قبل على رؤية من تقدموا لى ، ألتقيت بالطبيب المستوفى الشروط ، رجل الأعمال كامل الإمكانات ، الدبلوماسى المسافر للمستقبل الواعد ولم يمس أحد منهم مشاعرى ، لم تقرب المادة أو المركز المرموق بينى وأحدهم ، لم أطق تصور نفسى للحظة زوجة لأى منهم ، آه لو ترينه بعيونى يا أمى ، لو أستطيع أن أعيرك قلبى لساعة واحدة لباركت فيها زواجنا بكل الرضى ولرحمتينى من عبأ حرية إتخاذ القرار .

- أفيق على حركة حول الطاولة ، أياد تمتد بالتهنئة ، كلمات تتمنى للعروسين السعادة الدائمة ، قبلات تطير فى الهواء حرصاً على زينة الشفاه الملونة ، أقوم بدورى للتعبير عن مشاعرى الصادقة لأم العروس فتقترب منى ، تشدنى إلى صدرها بحب لا يخلو من إشفاق ، تهمس بأذنى : « شدى حيلك بقى ... لم يبق إلا أنت » ... أخفى سخرية ابتسامتى خلف شفتى ، أبدل عبارة تعجبنى الصامتة « أشد حيلى إزاى يعنى » بكلمات تقليدية « إن شاء الله ... مرسى يا تانت » .

- يمر قطار بشرى طويل آت من محطه أهل العريس حاملاً

أصدقاؤه من الجانب الآخر من القاعة يسحب أول يد على طاولتنا لتأخذ معها الأيدى الشابه الباقية ويمضى فى خطوات راقصه يشق طريقه وينطلق يملأ القاعه مرحاً .

يتوقف القطار بعد إنهاء الموسيقى المصاحبة لسير فأجد نفسى أقف أمام باب القاعه مباشر ... أخرج منها ... أتجه الى الكافيتريا الساهرة بلا رواد تقريباً ، فى أحد الأكان آخذ مكانى ، أطلب فنجاناً من القهوه وأبدأ حديثاً هادئاً مع نفسى ، يجب على أن أعترف انه من المستحيل الحصول على كل شئ فى الحياة ، من العدل أن نترك للآخرين مايتمتعون به هم أيضاً ، وأنا أملك النصيب الأكبر من أسباب السعادة ، النصيب الأهم ، أنا أملك الحب ... فلأرضى إذن بما ينقصنى فلأ تخلى عن أحلام الشقة الواسعة ، السياره الفاخرة ، خاتم الماس ، قد يجوز أن يؤجل موعد عشاء ، زيارة للطبيب ، الاتفاق على صفقه لكن كيف يمكن أن تؤجل مشاعر الحب ؟؟ على المائدة المجاورة لى يرتفع صوت حوار يشتت تركيزى ، يجبرنى على الإنصات له ، صوت نسائى مشحون بالغضب به نبرة ندم أسمعها « ياريتنى سمعت كلام اللى نصحونى » فيرد عليها صوت خشن غاضب « أنا لم أجبرك على الإرتباط بى ، ولم أخفى عنك ظروفى ومع ذلك مش ده موضوعنا » ترد عليه « بالعكس هو ده موضوعنا لو كانت ظروفك غير كده مكنتش طلعت علىّ عقدك ، أنت مش عايزنى أكلم حد علشان معملش مقارنة بينك وبينه وأنت عارف طبعاً أن النتيجة مش حتكون فى صالحك » يقاطعها بحده « دى أفكار جنون العظمة اللى أنت بتعانى منها ، أنت فاكرة نفسك أيه ... أنت ولا حاجة » .

يزداد انفعالها « أنا ولا حاجة ، لك حق أنا ولا حاجة لأنى تنازلت عن كل حاجة وأنا فى غيبوبة وهم الحب » .

أضع فى الكراسة الجلدية أمامى ثمن فنجان قهوتى مكتفية بهذا القدر من بلبلة الأفكار .

أعود لمشاركة الآخرين الفرح مؤجلة اتخاذ قرارى ، على الدرجة الأخيرة من السلم ألتقى بأحد المعارف ، نتبادل حديثاً قصيراً ينتهى بالسؤال المتوقع دائماً فى مثل هذه المناسبات : « وهنفرح بكِ أمتى بقى » ؟

فأجيب بثبات « لم يحن الوقت بعد » .

واجب عزاء!

استيقظت في الصباح وأنا مهيأة نفسياً تماماً لاستقبال حالة من الاكتئاب كأن ساعات نومي قد شحنت بالتوتر ، بالكوابيس المزعجة ... كأنها كانت ساحة شجار ... هزائم ... بكاء طويلاً .

لا أتذكر بالتحديد أي الأحلام استقبلت ليلة أمس .. لا أذكر أحداثاً بعينها أثارتني فأختزنتها دون عمد ولكني أصحو اليوم بصداع لم يزرني من شهور... انقباض بصدري وكأن حجراً ثقيلاً يتمطى فوقه ، غير قادرة أنا على زحزحته رغم استغاثة أنفاسي انسحب من تحت الأغطية ببطء ، بوهن وضعت فيه كل قوة أملكها أقف أتأرجح في محاولتي الحفاظ على توازني فوق الأرض ... أبدأ في ممارسة طقوسي الصباحية المعتادة متحدية ضياع حماسي ، إلى أن تصل يدي لإحدى أوراق النتيجة المعلقة على الحائط ، تهم بانتزاع تاريخ الأمس وأنا أسمع صوت شرشرة انفصالها عنها ، كرمشتها بين أصابعي ، تتجمد نظراتي عند هوية يومي الجديد ... الآن فقط أعي أسباب تعاستي الخافية عني ... المخبأة في عقلي الباطن ... اليوم الذكرى الثانوية الأولى لموت وليدي الأوحد الذي ظننته أبداً لن يموت .

للحظة افترضت إنه من الواجب على إرسال برقية عزاء له ... أو ربما هاتف قصير من باب المشاركة ولكنى تنبهت أن الميت يخصنى وحدى ، حقاً هو الذى دفنه منذ عام ، لكن متأكدة أنا أنه لم يحزن عليه قدر حزنى ... هو لم يعرفه مثلى ... لم يعاشره ليل نهار مثلما عاشرته لم يفهمه مثلما فهمته لم ينصهر فى عذاباته لم يتألم لمرضه حين بدأ ولم يفجع فجيعتى فيه وربما لا يتذكره هو الآن ... أنا التى بحاجة إلى من يواسينى ... يشد على يدى .

عاودت غسيل وجهى ... جمعت شعرى للخلف ... أرتديت السواد من ربطة رأسى حتى الحذاء ... حرمت قهوتى من السكر ... أدرت الراديو وعلى إذاعة القرآن الكريم وجهت مؤشره وانتظرت وحدى بالردهة مستسلمة لمرارة الذكرى عند مفترق الطرق فى مدينة الأحلام تركنى ، يقظى وماذا أفعل بيقظتى وكل ما حولى يبعد أميالاً عن الواقع .

عاجزة كنت عن تحديد اتجاهى بعدما أهديته بوصلتى ، كنت أريد أن أهديه شيئاً قيماً ولم أكن أملك أغلى من خريطة أيامى القادمة لكنه عاد وتركنى ، ضيع طريقى وتركنى ... أتعجب من تلذذه بتعذيبى ... أستنكر على إنسانيته أن يختارنى ضمن جواريه وأنا امرأة حرة بتوهان كنت أنظر إلى المفارق من حولى أى درب أختار ... أى سكة أسلكها كيف أواصل أو كيف أعاود .

ضعيفة كنت وألقى على عاتقه بخيبتى لكن ... أو ضعفى كان مسئوليتى وحدى ألم يرفعنى يرفعنى ثم ألم يهوى بى بقوة بقسوة بعد ذلك . وأتصور أنه ما كان يجب على أن أنكسر أن أتحول إلى فتات من

الزجاج المطحون ، أو من حجر كان يظنني ؟ أنه أبداً لم يعرفني .
رأني .. سمعني .. ضمني لكنه لم يحسني لم يعرفني ، لعب على
أوتاري بحرفية ماهرة ولما أنتهى اللحن لم يعجبه فحطم القيثارة ومضى ،
قادني للجنون ولما تكتفت يدى خلف ظهرى بأكمام الجلباب الأبيض
تركني في الصحراء مع كلمات يتردد صداها من حولي « أو لو تزوج
قيس بليلى أكانت لدينا أخبار عنهما الآن » « إن أردت أن تحبي ذلك
الحب الخالد فلتتعذبي أو أردت أن تتعذبي فلتحبي ذلك الحب الخالد »
« أما أنا فالرومانسية اسقطتها من زمني وإلا ما كنت أنا » .

حفر بكماته تلك قبراً ودفن الحب بعد أن قتله بغروره بأنانيته
بماديته ... أنا أيضاً شاركته بضعفي ... بتلقائيتي ...

ويبدو أني لم أتعلم بعد ، فمازال الشجن يسكن أركاني وأفتح
ذراعي مرحبة من جديد بالحزن .

حتى المساء لم يأتني أحد ليعزيني وبحاجة أنا لمن يشاركني أحزاني ...
لاتكفني دموعي ، صمتي بحاجة أنا لأن أذوب في الألم ، أن يدخل من
مسامي كما يخرج منها أريد أن أتنفسه في الهواء .

أمسكت بالجريدة اليومية ... فلبت وريقاتها حتى وصلت لصفحة
الوفيات ، من بين الأسماء والصور اخترت فجيعة حقيقية في عمر
الزهور في كامل الصحة والجمال ... بحثت عن العنوان ، هنا سأشعر
بالراحة ... سأفرغ كل ما أختزنته بصدرى ... هنا ستخرج أهاتي فتجد
من يؤنسها ويرد عليها بنفس الحرارة .

دخلت المكان منهوكة القوى ... متورمة العينين .. متشحة بالحزن

الأسود ، سرت بين الجالسات فى صمت مهيب ... ألقيت بجسدى على مقعد يتوسط الغرفة محاطة بسيدات كثيرات ما أن رأين هيئتى حتى علا النحيب وبد أن يبادرننى بكمات المواساة يحثننى على الصبر .. ربتت على يدى سيدة عن يمينى مؤكدة « كان غالى والله كان غالى شدى حيلك ، ويصل أذنى صوت أخر « كان فى عزه الله يرحمه » فيرد صوت من مكان ما « هوه حد كان يصدق أن ده يحصل « تميل على أذنى من تجلس عن يسارى « أطلبى له الرحمه يابنتى ومتعمليش فى نفسك كده متزعليش منى برضه الحى أبقى من الميت » ويعلو صوت المقرىء آتياً » من الحجرة المجاورة التى تخص الرجال فننصت جميعاً وشيئاً فشيئاً » يهدأ النحيب ويسرى هدوء الاستسلام لاقدار الله ، الوقت يمر وينتهى الصوت الرخيم من الترتيل يبدئن المعزيات فى الانسحاب وأنا باقية مكانى يلفنى هدوء عجيب وكأننى لتوى أنهيت رحلة طويلة شاقة ، تستجيب يدى بشكل تلقائى لأيديهن الممدودة.. تستسلم وجنتى لقبلاتهن الحارة .

تستقبل أذنى كلمات العزاء الصادقة بارتياح ، حتى يكاد يخلو المكان إلا من عدد قليل يلتف حول سيدة صامتة جالسة فى ركن منزو يبدأ الرجال فى الخروج من الحجرة المجاورة متخذين طريقهم إلى باب الشقة ويقف رجلان خارج الباب المفتوح أحدهما كبير السن نسبياً يبدو مهدوداً يشد الآخر على يده بمساندة حارة يكسو ملامحه حزن شديد فتتسع حدقتى لتتأكد من صحة ما ترى ... يلفت انتباهه تحديقى المذهول فى وجهه وتلتقى نظراتنا لبرهة أشيح بوجهى بعيداً بعدها ..

أغلق فمى المفتوح ... أعنف نفسى فى صمت حتى بعد الموت أبحث عنه أذهب أنا إليه بقدمى .

أنت فقط إنتهيت منى

أرقبه وهو يجمع أشياءه فى حقيبة كبيرة ... أتمنى لو ينسى شيئاً أى شىء ربما يعود مرة ثانية ليأخذه .

ميتة فى وضع الجلوس على طرف الفراش فى مواجهة المرأة ، أرمقه بعين والأخرى تسقط العريضتين لم ينقصا سنتيمتراً واحداً .

لم يكبرْ وكبرت ، ما زل شعره الأسود يلمع كليل فى ليلة مقمرة ما زالت له نفس الكتفين على صورتى أمامى .

لم يتمكن منه الزمن ... ما زال قوياً كفرس عربى أصيل ، وكبرت لم أعد تلك الشقراء النحيفة لمّ قصصت شعرى تلك القصة الصبيانة القبيحة !!

لمَ انطفأ البريق الأزرق بعينى !! كيف زحفت على جسدى تلك الشحوم دون أنَ أنتبه ؟

يغلق الحقيبة فينهى حديث الصمت بينى وبين نفسى .. يخرج صوتى عالياً أتعجب من ارتفاعه .. ظننته انحبس داخلى وبحاجة أنا للصراخ حتى يسمعنى .

– أأنتهينا .. يرمقني بنظرة تعجب من غباوتي ويمضي .

أسمع صوته أذهب خلفه ألملم الكلمات التي يلقيها وهو في طريقه للخارج لقد انتهينا من زمن ورغم ذلك ما زال لديك حرية الاختيار في موضوع الطلاق ومن جديد أحدث نفسي أي خيار تركه لي ... أي حرية يمكن أن يشعر بها مساق إلى الإعدام انها كتخيرة بين أن يموت في العاشرة صباحاً أو في العاشرة والنصف ، أيحب أن يشنق بالبدلة الحمراء أو ببدلة بلون آخر .

ورغم ذلك سأتشبث بذلك الخيط الرفيع بيننا... لن أطلب الطلاق . سأستمتع بكوني منسوبة إليه ... أعلم أنه وهم ولكني سأعيشه . يغلق الباب خلفه ... اسمع خطواته تحمله بعيداً عني وأتعجب !! من أين له بكل تلك القسوة وهو يملك إحساس فنان !! ما الذي حدث !!

لم أعد المرأة التي تريد . وماذا عني أنا ؟ أنت فقط الذي أريد ، أحببتها وتريد الإرتباط بها ... وأنا ألا يهم أنني ما زلت أحبك أنني مرتبطة فعلاً بك . تقول أننا فقدنا القدرة على التوافق . وأقول أننا لم نتوافق أبداً ومع ذلك لا تستطيع أن تنكر أنّا كنّا نحب بل لقد كان الحب بعينه ، الحب الذي يجعل المرء كتلة من العواطف تنهزم أمامها حسابات العقل والمنطق ، من قبل كنت تحسني أما الآن فأنت تراني ... تراني بعيون الرجل أي رجل . بدأت تفكر في مدى صلاحيتي ... كففت عن حبي فأنتبهت لأظافري القصيرة ، أزعجك شكل شعري الصبياني ، أكتشفت أنني أكثر بدانه مما تطلب . توقفت عن حبي فقررت أن تستبدلني .

ولكني لم أتوقف أبداً عن حبك ، في كل حالاتك كنت أحبك ،

وأنت مريض كنت أحبك وأنت مفلس وأنت غاضب . كان حبك يلازم روحى وينفصل تماماً عن ما يحيط بك ، كنت قادرة على إحتواء تقلباتك ، على تفهم ظروفك ، على امتصاص غضبك .

والآن تركتنى .. الغربة تلفنى ، تحيط بى ، تملؤنى ، المكان لا أعرفه ، البيت ليس لى ، كان وجودك هو صلتى الوحيدة بالأشياء من حولى لماذا لم تترفق بى ؟ كيف واتتك كل تلك الشجاعة ؟ كبطل لإحدى أفلام الغرب الأمريكى ، ترمينى بالحقيقة فتردينى قتيلة ثم تشعل سيجارة وترحل ، .

ليتك استبقيتنى فى منطقة جاذبة طاردة من حياتك ولم تترك البيت فرغم عذابى فيها كانت ستؤكد لى أننا لم ننته بعد أما الآن فانتهينا .. لا ليس كلانا أنت فقط قد انتهيت منى أما أنا فبإمكانى استحضارك فى أى وقت ، فى كل وقت ، سأعاود ممارسة تلك اليوجا الصعبة الممتعة التى كنت أمارسها فى ساعات وحدتى قبل أن تكون لى ، تلك القدرة الهائلة على التركيز التى تمكننى من استحضارك من أى مكان أنت فيه . فأحسك تقترب منى وأقترب أنا أيضاً أقترب حتى نلتصق .. نتوحد ... يصبح لكلينا جسد واحد أنظر بعينيك وتتنفس برئتى وتتطابق دقات قلبينا فاتحرر من الخوف ، من فكرة الموت قبلك .

أنوع من الجنون هو ؟ فلأعش ساعات الجنون التى توحدنى معك فلست مهيأة بعد للعيش بدونك ... رافضة أنا الانفصال عنك أنت فقط قد انتهيت منى . أما أنا فلا .

الموعد

أقف أمام المرآة ، أنظر لنفسى ببلاهة بعد محاولة تجربة بعض العبارات القصيرة فى فمي وفى كل مرة أهمس بكلماتى أوجه رأسى . بشكل مختلف مائلة برأسى للخلف مرددة .. لا ليس بالضبط .. خافضة بصرى لأسفل قائلة : فرصة سعيدة ... ثم مرة أخرى فى وضع جانبى يبرز « بروفيلى » مؤكدة : معك حق ! وكأننى ممثله مبتدئة تبحث عن أجمل صورة لها في بروفة ما قبل التصوير أهرب بوجهى من المرآة ... أعطيها ظهرى ولثوان أفكر أن أمسك بالهاتف وألغى ذلك الموعد الغريب .

سأخبرها أننى لن آتى ، لن أخوض تلك التجربة اللعينة ، وستردد نفس الكلمات التى أصبحت أسمعها طوال الوقت من كل من أعرف ، حتى من نفسى . أنت الآن فى الأربعين ، لا تعملين ، ليس لديك مجالات تلتقين فيها ، بالجنس الآخر ، تلك هى الطريقة الوحيدة الباقية أن كنت تنوين الزواج . وأقول أنا بل تلك هى إحدى الفرص الأخيرة إن كنت أنوى ، أستدير فأواجه نفسى من جديد .

تدور عيناى بين الأشياء المزدحمة أمامي على « الشوفونير » ، أبحث بين أدوات الزينة عن علبة البودرة فلا أجدها ، أبحث باجتهاد

أكثر فأتأكد أنها ليست موجودة ، دائماً ما تضيع الأشياء منى وهى بين يدى أنظر إلى يدى فأجدني أمسك بالعلبة الهاربة . وبحركة سريعة غير مبررة أغطى وجهى بلون أفتح درجة من لون بشرتي ، أضغط تحت العينين ، أتاكد من إخفائى لآثار اعوامى الأربعين ، ثم بآلية أتناول فرشاة « المسكرا » ارفعها أحاول تثبيتها على رموشى .. تهتز بيدى ، تطرف عينى وبحركة لا إرادية أغْلقها بسرعة فتتساقط الدموع على وجهى ، أنظر بصعوبة من خلف الغيمة السوداء ، أرى بقعتين فى شكل دائرى فوق وتحت جفونى ، ألقى بما في يدى ، أجرى إلى الحمام لأنقذ عيونى من ذلك الحرقان المؤلم . .

المنشفة تخفى الطريق أمامى وأنا أجفف وجهى ، أحدث نفسي .. أأنا أتزوج بالطريقة التى تزوجت بها جدتى ! اصطدم بالحائط وأكمل الطريق ، أأنا سأجلس أمام العريس يتفحصنى وكأننى بضاعة معروضة بفترينة ثم يسألنى عن سنى ، نوع دراستى ، ولماذا لم أتزوج إلى الآن ، وقد يمتحن ذكائى بفزورة سخيفة فيقول مثلاً .. هل تعرفين ما الشىء الذى اسمه مثل لونه ؟ أكوم المنشفة فى يدى وأقذف بها الحائط أقهقه وفى سرى أسب كل رجال العالم .

أتمشى بالغرفة ذهاباً إياباً ثم مره أخرى ذهاباً إياباً وفى العودة أفتح دولاب ملابسى .. أجذب الأثواب بقسوه من أذيالها واحداً بعد الآخر .. أخرج . ثوبى الأسود ، ألقى به على السرير وقبل أن يستقر أمسكه من كتفه وأعيد حبسه مع الآخرين وأغلق الدولاب سريعاً قبل أن يفر أحدها . مرة أخرى أجلس أمام المساحيق وبهدوء أتناول شيئاً تلو الآخر وكأنها أقراص لإعادة الشباب والجمال . أهمس لنفسى فى ثقة ... أنا

التى سأتفرج عليه ... أنا التى ستسأل .. أو ربما يكون من الأفضل أن أتجاهله تماماً وأهتم بالآخرين نعم سأجعل من المتفرجين أبطالاً وسأقتل البطل فى المشهد الأول .

انتهى من رسم وجهى . أؤكد أننى بلا مساحيق كنت أفضل كثيراً لكن الرجال يفضلونها ملونة مزينة ، مزيفة شيئاً من هذا القبيل افتح دولاب ملابسى ، أغمض عينى ، ادخل يدى وأخرجها بإحدى الشماعات هذا الذى سأرتديه ، أفتح عينى ، انه الفستان الأصفر ، أفكر هل للون الأصفر معنى ! لا أجد اجابة لسؤالى الذى لا معنى له ، أنه مجرد لون . أحاول تقييم نفسى بعينى رجل وأنا استدير أمام المرآة . لا بأس باقى من الزمن نصف الساعة ... أخرج إلى الردهة فى كامل أناقتى لكنى بدون حذاء من عاداتى السيئة حبى للسير حافية القدمين .. ربما وجب على أن أنبهة إلى ذلك ، وربما وجب عليه هو أيضا أن يخبرنى أن كان ممن « يشخرون » أثناء النوم ، هذا أمر هام جداً .

أشعر ببعض التوتر ... قد يجدى أن أتناول قرصاً مهدئاً وفنجاناً من الشاى أفعل .. دبابيس الشعر تؤلمنى .. أرفع يدى أزحزحها قليلاً ألقى برأسى على مسند المقعد المريح بالصالون ..

يهيأ لى أننى أسمع رنين الهاتف ، أسير بتثاقل ، أرفع سماعته تباغتنى كلمات غاضبة « إن كان بنيتك عدم الحضور لماذا لم تخبرينى بذلك ، أكثر من ساعة ونحن نتظرك ، أحرجتينى مع الراجل .. » ابتسم تتسع ابتسامتى ... يخرج لها صوت يرتفع ... أضع السماعة وضحكتى قد ملأت المكان .

وفجـــاءة

لم يترك له فرصة للرد ، فلم يكن سبب إستدعائه لمقابلته مناقشة شئون العمل كما فهم بل كان لإعطائة توجيهات صارمة بأن يبدل مداد قلمه من اللون الأسود إلى اللون البمبى ... بأن يرحم القراء من نظراته القاتمة الكئيبة للحياة ويكتب فى موضوعات أكثر تفاؤلا وبهجة ... بأن يجنب معاناته وهمومه فور أن يجلس إلى قلمه وأوراقه وأن يعمل خياله ويتصور شكل الجنة أو على الأقل بعض جوانب الحياة فى المدينة الفاضلة .

عاتبه مؤنباً « دائماً عندك الحب متأخر عن موعده .. الأهداف بعيدة على الشرفاء ... الحرية موؤدة ... العدالة مفقودة ... سنين العمر ضائعة والمرأة مقهورة ... معاناة ، أمراض ، والله حرام عليك » ثم أكمل واعظاً « ياأخى قبل أن تكتب تذكر نعم الله الكثيرة على البشر ، عليك أنت شخصياً ، مثلك يجب أن يكون من أسعد الناس ، فلا زوجة ولاأطفال ، لامسئوليات معنوية ولاأعباء مادية .

أريد أن أقرأ شيئاً مبهجاً فيه أمل سعادة ، اتفضل .

أتجه إلى مكتبه فى الحجرة المشتركة ، تجاهل جلسة النميمة المنعقدة عن زميله الغائب فأقحمه أحدهم فيها بسواله ، أسمعت بما حدث ؟

لم يبد اهتماماً يذكر لكن الآخر أكمل لقد ثبتها ... بعد ثلاثة أشهر فقط من التدريب ثبتها . رد بحياد : ربما يرى أنها كفء وتعمل بجد . أمسك ثالث بطرف الحديث راسماً بيديه فى الهواء جسد جميل لامرأة قائلاً : من ناحية كفء فهى كفء وتعالت الضحكات الموافقة بينما كان هو يجمع بعض أوراقه ، رسم نصف إبتسامة على شفتيه ثم إنسحب خارجاً .

فى إشارة المرور الطويلة استرجع حديث رئيسه بالعمل محاولاً إقناع نفسه بوجهة نظره الوجيهة هامساً لنفسه « معه حق ... يجب أن يكون هناك أمل حتى وأن خلقناه خلقاً ، فلأ حاول الكتابة بشكل جديد ، وربما يحتم على هذا أن أغير بعض الطقوس التى اتبعها عند جلوسى للكتابة فقد تكون تلك الطقوس أحد الأسباب التى تثير شجنى وتدعونى للاكتئاب ، لن أكتب بعد أن ينام الناس ، فلأجرب وبعض ضجيج الحياة من حولى ، سأكتب ظهراً وسأضرب بذلك عصفورين بحجر واحد فلن أستمع للأخبار بالمحطات الإذاعية المختلفة فترة الظهيرة ولن أجد وقتاً للقراءة المتأنية للجرايد ، لاداعى أيضاً للموسيقى الكلاسيكية وعلى أن أشترى فى طريقى الآن أحد شرائط إيهاب فؤاد أو مصطفى دياب ، يجب علىّ أن أبحث عن المرح ولابأس أيضاً بوجبة دسمة للغذاء تكبس على معدتى ورأسى فى آن واحد فلا أطيل فترة التأمل التى تسبق استدعاء الأفكار .

فى الثالثة ظهراً كان مهيأ تماماً لنوعيه الكتابة المطلوبة ، قرر أن يكتب قصة قصيره فقد رآها أهون كثيراً من كتابه مقال فمساحه الخيال بها قد تسمح لأن يخرج منها بشىء مبهج .

أمسك بقلمه وبعد أن عصاه في أول الأمر بدأت المحايلة والمعاندة ... ملأ السله التي بجواره بالمحاولات الفاشلة وقبل أن يستسلم لليأس خطرت له فكره ظنها قد تجدى ، بحث عن كتاباته القديمة التي لم تنشر ، إختار بعضها ، أعاد قراءتها، توسم أن يفلح الأمر إذا ماحذف بعض أسطر منها وأعاد كتابتها بروح جديدة أو لو أنه غير نهاياتها الواقعية إلى نهايات سعيده تدعو للأمل .

بدأ بأحدها ... واصل القراءة وعند منعطف هام من تصاعد الأحداث شطب بخط طولى على ماسبق أن كتبه وسطر ما يلى .

وفجأة أرسلت إليه العناية الإلهية مددها فإذا بضمير رئيسه في العمل يصحو فيستدعيه ليزف إليه خبر « ترقيته » التي تأخرت لسنوات سهواً ويعيده من المكان النائي الذي نقله إليه بطريق الخطأ بل يرجوه أن يغفر له تعنته غير المقصود معه ويشيد بأمانته وطهارة يده ويكافئه أيضاً بصرف مرتب ثلاثة أشهر كتعويض عما لاقاه من غبن وظلم فيعود إلى منزله فرحا يجمع أفراد أسرته حوله في سعادة تبدد على الفور كل ماعاناه من ظلم وتشتيت وحاجة وعوز ويبدأ الجميع صفحه جديده عامرة بالتفاؤل والأمل .

يُلقى بالقصة الأولى إلى حافة المكتب دون أن يعيد قراءة ما كتبه كما يفعل عادة ويمسك بأخرى وفي المكان الذي يراه مناسباً يضع على لسان الزوجة الحوار الجديد . وفجأة تستعيد الزوجة الطيبة مخزون الحب القديم تجاه زوجها العابث ، فتغفر له إساءاته ، تنسى إهاناته وتضمد العنايه السماوية كل جراحها فتقترب منه بلطف شديد قائلة : لقد اكتشفت خطئي والجرم الذي كنت سأفعله بالخروج عن تعاليم الدين ، إنه

حقك الذى أعطاه لك الله « مثنى وثلاث ورباع » فلتتزوجها على بركة الله وسأظل دائما هنا انتظرك أربى أولادى وأنعم بظلك ولن أدخر جهداً فى إسعادكم جميعاً فهذا دورى الذى خلقت من أجله ، فيخرج الزوج راضياً عن زوجته العاقلة ليتمم زيجته الثالثة مردداً فى نفسه لقد أعفتنى بحكمتها من معصية الله ويعيش الجميع فى هناء وسعادة .

يتناول واحدة أخرى وبنفس الطريقة يعمل بنشاط فيجعل البطلة المريضة بمرض لا شفاء منه بالإرادة الفولاذية والأمل فى النجاة والرغبة فى الحياة تكسر القاعدة العلمية لهذا المرض وتحقق المعجزة وتشفى تماماً بل تعود أكثر صحة وجمالاً وتنسى فى خضم السعادة كل المعاناه والآلام والإهمال الطبى الذى لاقته طوال أشهر عصيبة فتضحك الحياة لها ملىء فمها واعدة بأيام قادمة مديده مفعمة بالسعادة .

ينتهى من القصة الثالثة مندهشاً من نفسه متسائلاً « ما هذا الوحى الذى هبط فجأة على » أيضاً فلا تستعصى على فكرة ولا يتوقف قلمى عند إختيار عبارة والأحداث كلها سعيدة ومبهجة ، سلسة حاضرة ؟!! يبدو أن الأمر أبسط مما كنت أتصور بكثير .

يقطع عقرب الساعة الصغير شوطاً طويلاً فى دائرة الزمن الماثلة أمامه ... تهدأ الحركة فى الخارج ... يصعد القمر إلى مكانه فى السماء ... بتلقائية التعود يضغط زراً فى متناول يده يأتيه بموسيقاه المعتادة ... يميل برأسه للخلف مغمضاً عينيه ... يشعر بصداع شديد . وينتابه إحساس من هو عائد من رحلة بعيدة كان فيها وحيداً وكأنه عائد من منفى .. تكسير بأعضائه كلها يتقبله راضياً كضريبة لإلتئام روحه بجسده ثانية ... يروح فى غفوة قصيرة ، تطارده فيها أشباح هاربة من

« نيجاتيف » فيلم تتواصل صورة وتتابع ، تبدأ واضحة بوجه جميل حائر ينظر إليه وهو يبتعد فى حين يرى نفسه محشوراً فى مربع صغير فى زاوية الصورة يكاد لا يبين ، محجوب عن الأعين بسيارة فارهة تقف أمامه يترجل منها تاجر الأحذية الأمى باعتزاز من يحمل دكتوراه فى الهندسة الإلكترونية .

ثم تتوالى الصور سيريالية التشكيل ، تختلط فيها تناقضات الحياة بشكل مفزع ، أشكال مرسومة بدقة متناهية وعلى الجانب الآخر أخرى مرسومة فى إهمال شديد كأنها فى طريقها للموت ... رموز لسلام وخداع فى ميزان « للعجب » أنه يبدو معتدل الكفتين . صلاة يصاحب الآذان فيها صوت طلقات رصاص ... الفيلم يدور صامتاً وضجيج الأحداث يصم أذنيه والجمهور والنقاد غائبون ينتفض مذعوراً يردد : لكن لابد أن يكون هناك أمل وإن خلقناه خلقاً .

يكوم الأوراق التى كتبها لتوه ، يضغطها بعنف داخل السلة ، يدفنها فيها يضع بدلاً منها الأوراق التى أتى بها من العمل أمامه ، يكمل مقالاً كان قد بدأه فى الصباح ... والصدق مع النفس والإعتراف بالمشاكل الموجودة بالفعل هى المخرج الوحيد والوسيلة المثلى للخروج من المأزق الذى نتحرك تجاهه » والبدء بمعالجة الأسباب التى أدت إلى الوضع الحالى هو التدرج المنطقى فى الطريق إلى إيجاد حلول ، وعلينا بالضرب بيد من حديد كل من يحاول المساس بالحرية أو العبث بكرامة الإنسان وحقوقه حتى وإن استلزم الأمر ....

الرحــلـة

نزولاً على رغبة مرافقيها الملحة قبلت دعوة العشاء خارج الفندق لم تكن فى استعداد نفسى يسمح لها بالترحيب بالدعوة ولا حتى برفضها.

كـانت فى إحدى حـالاتهـا التى لا لون لهـا حـيث يضـيع الحـماس فتستوى الأشياء كلها .

سارحة تنصت للتساؤلات التى تسللت السلم الموسيقى الذى يحاول جاهداً أن يجد مكاناً لنغماته وسط الضجيج ، أسلمت نظراتها للديكور من حولها فتراءى لعيونها رسمة واحدة من علامات الإستفهام مختلفة الأحجام تسبقها أسئلة لها معنى واحد « لماذا أنا هنا » ؟ هل أقضى وقتا طيباً هل أفضل العودة ؟

ردتها من شرودها كلمات تحثها على الصعود للغرفة للاستعداد كان الوقت قد تعدى الثانية عشرة والنصف فاستجابت دون تعليق ، سارت فى الممر الضيق المؤدى إلى الغرفة التى اختارتها بعيداً عن المبنى الرئيسى للفندق .

داخل غرفتها فتحت الدولاب الصغير ... اكتشفت أنها أتت بالعديد من الملابس التى لالزوم لها فلم تستعمل أياً منها ، منذ مجيئها

وهى تخاصم فكرة التأنق بلا داع ... تصر على أن ترتدى نفس « الترايننج » صباحاً مساءً نفس الحذاء ، نفس عقصة الشعر ، أدوات الزينة أمام المرآة مرصوصة لم تمتد يدها لها أيضاً .

تقرر التخلص من شخصيتها الإنطوائية ولو لليلة ، فلتساعد نفسها على جلب البهجة ... فلتتخلى عن إنتظارها لصدق الإحساس بالأحداث ، بالأشياء دائماً تنتظر أن تفاجئها الأحداث بالسعادة الحقيقية ووقتها فقط تستطيع أن تحلق معها ... تمتص ثوانيها وتذوب فى تفاصيلها .

أى طريقة غريبة تعيش بها ، فلتحاول إقتناص بعض لحظات السعادة كما يفعل الآخرون ... فلتكن على الأقل مجاملة فهى من المؤكد بهذه الطريقة صحبة سيئة تنوى ساستدعى اليوم البهجة إستدعاء ... سأداهن بضحكاتى ... سأحسن إختيار موضوعاتى لن أدع مكاناً للفلسفة ولا فرصا للتأمل ... لن أترك مساحة للغائب الحاضر داخلى ليحتل كيانى ويجعلنى أشعر بالوحشة فى أى مكان غير موجود هو به .

سأرهن نفسى الليلة لدى حياة الآخرين العادية فربما أجد بها حكمة ضائعة منى ... تختار ثوبها الأبيض لترتديه ... تعتنى بزينتها ... تبتسم ساخرة لجمالها زائف الروح .

تعود من نفس الممر ، لكن تلك المرة تحمل إبتسامة ودودة على وجهها ترد تحية المساء على بعض جيرانها المؤقتين فى الغرفة المجاورة ... ترضى غرورها نظارات طبية الفاحصة لها ... نظرات الرجال

المتخفية خلف نظرات طيبة أو ضحكات عالية مقصودة أو التفاتات تبحث عن لا شيء .

عند موظف الاستقبال تترك مفتاح الغرفة فيستقبلها بابتسامة واسعة ويودعها بأخرى أكثر إتساعاً مع أمنيات بقضاء سهرة سعيدة ترد بكلمات لا تذكرها على عبارات ثناء تطرى حضورها ... جمالها ... روحها الجديدة وهى تغلق باب العربة .

داخل الفندق الكبير تتلكأ أمام مجموعة من نباتات الصبار مزروعة فى أصص صغيرة تزين أكثر من واحدة منها ورود شديدة الدقة زاهية الألوان فتعلق : « لأول مرة أعرف أن للصبار زهوراً بهذه الروعة » فتجذبها يد لتلفت انتباهها لنجفة فخمة تحتل مساحة كبيرة من السقف قائلة بل الروعة هنا .

تترك لخطواتهم مهمة القيادة ... تتبع خط السير إلى أن يصلوا إلى صالة كبيرة وحول طاولة بعينها تم حجزها يلتفون لتبدأ السهرة الثلاثية . الصالة الأنيقة الدافئة المضاءة بالشموع تحاول جذبها إلى عالم من الرومانسية سيتبعها بالتأكيد ابتعاد تام بروحها ... إستحضار لشخص بعينه عودة لما قررت الهروب منه الليلة ... تتخلص من أفكارها بالرد على استفسار عما تريد أن تشرب كادت للحظة أن تفسد الدور الذى تلعبه وتطلب كوباً من « اللبن الحليب » وبعد لمحة سريعة للكؤوس الموضوعة على الطاولة والطاولات المجاورة قالت : سأشارككم ما تشربون فقرر صوت بجوارها : فليكن الليلة نبيذ أحمر .

تتعذب بمذاق المشروب الأحمر القانى .. تتلذذ بالدفء الذى يشيعه

بجسدها مع آخر رشفة من الكأس الأول تواجه النظرات التى ترفض أن تترك مراقبتها من الطاولة المجاورة ... تنتبه لحالة التشابه بين الطاولتين فهناك رجل وامرأة متقاربان ثم على المقعد الثالث رجل بمفرده . ربما يكون أيضاً قد قبل دعوة مرافقيه بلا إرادة مثلها .

على الضوء الخافت للشموع تحاول أن تتبين ملامحه ... هذه الملامح تعرفها جيداً !! لم تعد تقلقها مراقبته لها .. ترحب بصحبة نظراته الآن ، تبتعد بنظراتها وهى مطمئنة أنه يتبعها ، تشارك فى الحديث بإيجابية أكثر ، وبعد لحظات تجد شخصاً أجنبى الملامح ينتصب أمامها ويدعوها لمراقصته تلتفت للطاولة المجاورة فلا تجد رفيقها الذى تعرفه .

يخرجها مضيفها من حيرتها بلباقة فيعتذر له وهو يمد لها يده ليصحبها إلى حلبة الرقص . بإرتباك تنظر خلفها فترى ذلك الشخص يعود ليحتل مكاناً بعينه حيث يبدأ فى مراقبتها من جديد من نفس المكان .

الآن فقط تنتبه لقد رسمت الملامح التى تريدها على وجهه . ما زالت تمارس تلك العادة الأنانية الغريبة عادة مسح ملامح الأشخاص من على وجوههم وطبع صورة واحدة فقط تريد أن تراها هى .

لحظات ويعودان ... تغير مكان جلستها ، تنظر فى ساعتها ، تكمل الوقت الباقى من السهرة بين تعليقات تقليدية وصمت قلق .

أخيراً تتنفس الصعداء تحمل حقيبة يدها بنشاط مفاجىء ، تتقدم خطواتهما إلى الخارج ، تستقبل طريق العودة بشوق .

عند باب الفندق أحدهما يردد : لم نفلح فى أن نحملك ذكرى سعيدة عن هذه الرحلة بمجاملة تنفى على العكس لقد كانت سهرة جميلة تشكر لهما دعوتهما وتدخل ... تحمل مفتاح الغرفة .

وفى الممر الطويل الضيق إلى غرفتها تحدث نفسها ... ليس ذنبى أننى لا أملك موهبة الإدعاء ، لكل منا تركيبة خاصة ليس له يد فيها . تغلق باب الغرفة من الداخل ... تسترد نفسها . وفى فراشها تستقبل الغائب الحاضر ، تغمض عينيها وتنعم بفكرة العودة فى الغد .

لا لن أفتح عينىّ

شدة الحرارة تكاد تصهرنى ملابسى تلتصق بجسدى المبلل ... العرق يتصبب صباً على وجنتى ، يحفر أفرع من المـاء بين خصلات شعرى ولأول مرة أفكر فيما يمكن أن تكون عليه بشاعة انتظار النار بالآخرة . ترى أيتركنا الله نسير إليها بهذا البطء الشديد لنحترق ألف مرة قبل أن نطأها بأقدامنا ؟ أم سيقذف بنا قذفاً فيرحمنا من هذا الإحساس الرهيب بصهد لهيبها ؟

أتذكر أننى لم أؤدى فريضة الظهر اليوم .. أرتعب ... أتعجب من شدة تأثيرك على ، كيف يمكنك أن تنسينى ... أستسخف الفكرة . أنفيها نفياً أفتح باب السيارة ... أحاول أن أرى أية بارقة أمل فى الإنفراج ، احتل مقعدى من جديد يائسة ، أمد يدى أسكت فيروز معتذرة لها لا يجوز أن يكون لصوتك مكان هنا ... الأحرى به أن يشدو فى الجانب الآخر ... فى الجنة ... الإنتظار يطول ...

أنظر فى المرآة يخيل إلىّ أن المساحيق على وجهى قد اختلط بعضها ببعض فإذا بالصورة المرسومة بدقة فنان محترف قد استحالت لوحة سيريالية لا معنى لها إلا فى باطن الرسام المجهول المعنى بشدة حرارة صيف القاهرة فى الثالثة ظهراً .

يظل معى ذلك الإحساس بعد وصولى رغم وجودى بتلك الغرفة الواسعة المكيفة الهواء نعم عيناى تؤكدان وجود رجلين أمامى فى كامل هندامهما وأناقتهما ... يتحدثان حديثاً هادئاً ليس له دخل بالجنة أو النار .

عيناى ترقبان الموقف ... فقط عيناى ... أنقل بصرى بينهما !

أحدهما يملأ مقعداً خلف مكتب عريض ... يدنو من الأربعين ... أنيق ... له نظرات ثاقبة ، وكفان كبيرتان ... واثق يتحدث بطلاقة بلا عناء فى اختيار الكلمات يعطيك إحساساً بأن كل كلمة يقولها صادقة بلا أدنى شك .

نعم إنه كذلك كان معى دائماً : مقنع مائة بالمائة حتى وإن أراد أن يبيعنى الأهرامات .

والرجل الثانى يجلس أمام المكتب من الجانب الآخر ... قد تعدى الأربعين بقليل يتحدث بلهجة سورية ... يرتدى بدلة أتت لتوها من عند الكواء هادىء ... يضع على عينيه نظارة طبية تضفى عليه شيئاً من الأهمية ينصت بذكاء أو ربما بغباء مثلما أنصت أنا أحياناً له عندما يحدثنى فأنشغل به عنه .

وبين حين وأخر يستفسر عن شىء ما ثم يؤمىء برأسه فى حركة بطيئة ويقلب فى أوراقاً أمامه . أنقل بصرى مرة أخرى ... ألم المكان لا أثر إطلاقاً هنا لشمس حارقة ، لا وجود لأنهار العرق التى أوهمتنى بالغرق فيها . لا شىء مما بداخلى له إرتباط بما تراه عيناى . أنتبه ، أن فنجان القهوة الذى أمامى يرقبنى .. أمسكه من أذنه ... أرفعه فى

حركة آلية فوجوده أمامي يستوجب مني رد الفعل هذا ، فتؤكد لي الرشفات المرة أن الحجرة مكيفة الهواء وإنني لم أعد معلقة بعد على ذلك الكوبرى أنتظر إنفراج المرور .

أحاول الإنصات للحوار الدائر ... تصدمنى الأرقام تسخر من وجودى المعاملات المالية تعلم أننى أكرهها فتخرج لى لسانها مؤكدة أنها دائماً هى التى تكسب وقته واهتمامه وما أنا إلا قطعة من الديكور بالحجرة مثلى ، مثل الكرسى الذى أجلس عليه تماماً .. أشعر بالمهانة بالغباء أريد أن أصرخ أنا هنا ، آه ليتك تعرف ما الذى فعلته لأكون هنا ليتك تقدر ما الذى يعنيه وجودى هنا .

أغمض عينيّ للحظة ، أشعر بيدى تتمدد تَطُول أكثر فأكثر تزداد سمكاً أكثر فأكثر وتزحف ببطء وثقة لتطيح بكم هائل من الأوراق والأقلام والرزم المالية ودفاتر الشيكات والآلات الهاتفية كل شىء ... كل شىء موضوع على ذلك المكتب الضخم يسقط . فينتفض الرجلان واقفين فى ذهول ، ينظران إلىّ نظرات مرعوبة أكاد أسمع شفاهم التى لا تتحرك تنعتنى بالجنون . فأتسمر مكانى تملأ الدموع عيونى .. ينطق اسمى بهدوء فأنفجر فى بكاء هيستيرى يقترب منى ... أشعر بذراعيه تحتويانى ... أهوى برأسي على كتفيه .. يضمنى أكثر ، يربت على ظهرى بدقات هادئة منتظمة أشعر براحة شديدة ، هدوء حتى الذوبان وصوته يهمس بأذنى ... أرجوك لا تشعرينى بالذنب أكثر من ذلك ... لقد تأخرت عن موعدك ساعة كاملة ... أنه ضيفى ولا تتصورى ما الذى فعلَه لى فى دمشق . أرجوكِ أقبلى عذرى وأهدئى فأنا أحبك .

أستطيع أن أجزم أننى لن أكون أسعد حالاً من ذلك لو دخلت الجنة أحاول أن أفتح عينىَ وقبل أن يدخل لهما بصيص من الضوء أغلقهما سريعاً . ماذا لو أننى فقط أتخيل كل هذا !!

ماذا لو أننى ما زلت هناك ملقاه على الكرسى ... أمامى فنجان القهوة المر يرقبنى وفى أذنى حديث الصفقة .

لا لا أريد الخروج من الجنة ، فلا أستمتع بصوت فيروز ، لا لن أفتح عينىّ .

أريد حلاً

كم مررت بتلك اليافطة المعلقة ولم يشغلنى منها سوى أن تمسحها عيناى قارئة كما أفعل بما يجاورها من أسماء ومحلات ، وسيلة لقتل وقت الانتظار أو السير البطىء فى موكب المرور المزدحم ... استعرض غير مقصود للأسماء المعلقة على جانبى الطريق د/ أحمد عبد العزيز أخصائى أمراض نفسية وعصبية - صيدلية الشفاء - كوافير خليل - فول وفلافل أضواء المدينة لا أعرف ما الذى دفعنى لأن أقصد تلك اليافطة اليوم ؟!

ربما تكون خطوات أخرى نحو الجنون تجر جسدى خلفها ، معصوبة العينين أنا أسير ، ما زالت دقات زار الأمس تطن بأذنىّ ورائحة البخور تخنق رئتىّ ، وقبل أمس كنت مصبوبة فى قالب من الإنتباه أمام قارئة الفنجان منتظرة أن تأتى لى بالحل من بين تشابك خطوط فنجانى البنية غير المفهومة فربما تجد أي شيء يربطنى بك أو يفصلنى عنك فى الغد . واليوم أنا هنا أزور طبيباً نفسياً مغموراً . فكرة جهنمية حقاً أن تجد من تعطيه عملات ورقية فيعطيك أذنيه . ربما يستطيع باستماعه لى أن يمتص تلك الشحنات التى تملأنى فتجعلنى كائناً مكهرباً منفصلاً عن

الآخرين ... ربما يستطيع أن ينقذني من تسلطك الرهيب على أفكارى ، الذى يحاصر كل دقيقة من حياتى ليضعها فى برواز شيء منك . والغريب أننى لا يمكننى استيضاح رغبتى ، أهى الهروب إليك أم الهروب منك كل ما أعلمه أنك تجربتى الأولى فى الجنون .. أريد أن أتخلص من إحساس بالعبودية لك ... أريد أن أردم ذلك البعد الثالث داخلى ، فأنت موجود هناك فى العمق مستقر ملتصق بى .

نعلم أنا وأنت أننى لست المرأة المناسبة لك ولكن منذ متى كان للقلب قانون يحكمه العقل ، تتصور أنك كبش فداء تجاربى ، وأؤكد أنك التجربة الوحيدة الصادقة فى حياتى ... تفصل بيننا أعوام ، . بكم عام أكبرك ... ثلاثة أربعة أعوام . رغم ذلك معك أنت فقط طفلة أنا بصدق أحب . بكل ما فىّ من تركيبة المرأة ، من عطاء أريد أن أهبك كل ما عندى قد ترانى فاجرة وأخشى أنا أن أمارس الإدعاء معك فأفقد الإحساس بأجمل لحظات صدق مشاعرى وأقتل آدميتى .

وكلانا يعلم أنه غارق فى الحب حتى أذنيه ... كلانا لديه القطع المكملة للآخر ، بالإلتحام نشكل الإكتمال وفى البعد كل منا منكسر بشكل ما ، أنتبه أننى لى زمن أدور حول بناية بعينها ... أقف وأغلق عربتى أرفع رأسى لأقرأ بنظرات مقصودة هذه المرة د/ أحمد عبد العزيز أخصائى أمراض نفسية وعصبية . أسقط مفاتيحى وترددى بالحقيبة أغلقها وأصعد . لا توجد إضاءة ترشدنى .. الظلام يخفى درجات السلم وأخيراً يظهر ضوء يهدينى لباب مفتوح على ردهة متوسطة الإتساع فى الجانب الأيسر نوبى يرتدى « بالطو » أبيض يتمطى خلف مكتب صغير ولا أحد غيرى مريض .

يبادرنى - كشف .

أرد وأنا أعبث بحقيبتى المفتوحة :

- نعم . كم ؟

أسمعه - عشرون جنيهاً .

أسلمه النقود وأنتظر إذن الطبيب ، متوترة أبحلق بالمكان بلا عيون برهة قصيرة ويقودنى إلى غرفة الإعتراف .

أخرج من نفس الباب .. لا أعرف كم من الوقت أمضيت داخل تلك الغرفة أحدث نفسى فى صمت بآخر عبارات دارت بيننا قبل أن يسلمنى ورقة لبنية اللون « كم محظوظ هو ليتنى كنت مكانه » وأرد « لا يستطيع أحد أن يكون مكانه » يقول لنا موعد الأسبوع القادم وأخفى بين طيات نيتى « بل لقد انتهت إلى هنا مهمتك » .

أنهى درجات السلم ، بأتوماتيكية أتجه إلى اليافطة المجاورة صيدلية الشفاء أعطى رجلاً هناك الورقة التى أحملها وكأنها كلمة السر ... فى صمت يكوم أمامى علب مختلفة الألوان أحملها بدورى فى صمت وأخرج .

أقود عربتى ببطء ... أتساءل بسخرية أممكن أن يكون بتلك العلب الصغيرة بجوارى على المقعد الشفاء منه ؟!

أيمكن أن يختبىء بداخل تلك الأقراص الملونة سر إستمراريتى معه ألتقط الأقراص الصفراء المستديرة ، أخرج يدى من الشباك ، أضغط

أول قرص يفر فى الطريق جانبى ، أضغط الثانى ... الثالث ... الرابع آتى عليها كلها ... أتناول الأقراص الحمراء الأكبر حجماً أمارس نفس القسوة معها ...

ثم يأتى دور الأقراص البيضاء وقبل أن أدفع بها بنفس الطريقة تسقط من يدى أشيع انتحارها الجماعى بنظراتى .

أستدير بالعربة باحثة عن طريق آخر .. عن حلٍ يلصقنى بك أو يفصلنى عنك .

أقدم لك زوجى

عذبتها أعوامها الثلاثة والعشرون الخاوية من العاطفة .

مُعطلة مشاعرها من زمن .. مُؤجَلَة أنوثتها إلى غير موعد .

بين خصلات شعرها المهمل أماكن تشتاق لأصابع تتخلله .. تلملمه .. تبعثره .. تدغدغ أذنها وتستقر بهدوء على جيدها ، تخشى أن تكبر عيناها على تعلم لغة الحديث الصامت الصاخب .. تتناسى أن لشفتيها وظيفة أخرى غير الكلام فتتذكرها بطلات الأفلام الرومانسية التى تهوى مشاهدتها . إن شفتاها لم توظف بعد فى المكان الصحيح .

تحتار ماذا تفعل بقلبها الذى يدق بصدرها دقات احتجاج على إهماله . لكنها تصر على أن تنتظره لن تتزوج لمجرد الزواج .

إنها تنتظره هو ، وهو لم يأت بعد ولا تحاول أن تسأل نفسها متى سيأتى فهى تعلم أن الجواب مخبأ لدى القدر .

مِراراً فكرت فى كلام أمها ... إذا انتظرت فارس الأحلام هذا الذى فصلته تفصيلاً فى خيالك لن تتزوجى أبداً ! لأنه لن يأتى وتتذكر كيف أنها دائماً كانت تردد بتأكيد بتحدٍ ... سيأتى .

تضع خطة اشغال لأيامها عمل ... أصدقاء .. زيارات للأهل ترحال بالأسواق تمثل الانشغال ببراعة وبينها ونفسها تعلم أن أيامها مليئة بالفراغ إلى أن كان يوما أتاها هاتف من إحدى صديقات الدراسة القدامى وبعد حديث حميم فرحت به دعتها لتناول الشاى ببيتها .

من طريقة دعوتها ، من إلحاحها شعرت أن هناك شيئاً ما يختبىء خلف الدعوة تعودت تلك الدعوات المقصودة التي دائماً يظهر بها « عريس » فجأة فى صدفة مرتبة ورغم رفضها للمبدأ إلا أنها مجاملة لاهتمام الأصدقاء بأمرها كانت تقبل طالما هى دعوات مهذبة ، متخفية فى ثياب الصداقة .

فى كل مرة كانت ترفض عريس الصدفة فلم يكن أبداً هو قبل الموعد بوقت قصير تذكرت لم تكن تحتاج عادة للوقت فى مثل هذه الحالات كانت لا تبذل جهداً فى الاهتمام بزينتها بملابسها وكأنها تتحدى فكرة أن للطرف الآخر رأيا فى الأمر هى فقط التى ستقرر ما إذا كان هو الذى تنتظره أولا .

ذهبت ... بعد مرور وقت كاف تعجبت أن الدعوة تخلو من المفاجئات ولم تلعب الصدفة دورها ، مضى الوقت ممتعاً بين الذكريات والضحكات وعندما سحبت حقيبة يدها مقررة الانصراف . استمهلتها صديقتها لإحضار مفاجأة الزيارة ... صور مشتركة مضى عليها سنوات اختفت بالداخل فتشاغلت هى بالنظر من الشرفة لثوان وما أن أدارت ظهرها حتى وجدته أمامها . هذا الذى انتظرته فى صبر لسنوات يقف أمامها .

كما تصورته تماماً ... نفس الملامح التى رسمها خيالها ، الطول ، عرض الكتفين .. لون عينيه .. إنه طبق الأصل لمن تريد ، فى تعارف سريع غير كامل شد على يدها بقوة غير متعمدة .

عَدلت قرارها لن تذهب ... اتخذت مقعداً ... أراحت ظهرها عليه وبدأت زيارتها . حديث قصير قدم لها شخصيته ..

كلمات عفوية قليلة أوضحت هدوءه ... سرعة بديهيته ... رومانسيته دقائق مرت أكدت لها استيفاءه لكل شروط القبول ... إنه هو كما أرادته تماماً للحظة ... اعتقدت أنها اكتشفت خطة صديقتها المحبوكة تستبقيها لإحضار صور الذكريات لتعطيها فرصة للانفراد به واثقة أن مثله غير محتاج لوقت طويل ليقال به رأى .

للحظة ... أنبت نفسها لعدم اهتمامها بشكلها اليوم ، ماذا لو كانت ارتدت حذاء بكعب عال ، لو كانت أضافت بعض الروتوش لوجهها لتبرز جمال عينيها ، استدارت شفتيها .

قطعت عليها خيالاتها خطوات من الواقع . دخلت صديقتها تحمل عشرات الصور القديمة بعضها نصف مكتمل ، وضعتها أمامها مرددة : تأخرت عليك ، أخذت وقتاً طويلاً فى البحث من حرصى عليهم وضعتهم بمكان معين لأحفظهم ، خبأتهم ونسيت المخبأ حاولت أن تبتسم فجاءت ابتسامتها لها ألف معنى تنبهت صديقتها لوجوده وبحركة طبيعية تعودتها قبلته مرحبة سقطت ابتسامتها منها حين قالت : هل تعارفتم أقدم لكَ أعز صديقات الدراسة ... أقدم لكِ زوجى .

الزوجة الثانية

تروح وتجيىء ... تحمل أشياء صغيرة تضعها على الأرض فى آخر البهو الواسع تحدث نفسها ... بقى شىء واحد ... تقف ، تزحف يدها فى حرص لئيم حتى نهاية ساقها .. تمسك بجرو أسود صغير يتمسح بقدميها ... تحمله برفق بين يديها ... تحاول أن لاتكون شديده القسوه فتقرر أن تحبسه داخل حجره نومها بدلاً من أن تسربه خارج البيت فى ذلك الصقيع . تغلق الباب عليه .. تسمع نداءه ... بكاءه وحدته ، بشفقة تحاول إقناعه من الخارج يجب أن أختلى بنفسى . يجب أن تتخلص من عادة اصطحابى أينما ذهبت تبتعد عنه فى ثبات . الآن المكان ساكن تماماً ... لاحركه فيه ... لاأنفاس لأحياء غيرها .

تقرر أن تبدأ طقوس تعذيب النفس التى تطالب بمكانها فى حياتها كلما اشتدت معاناتها .

الجو مناسب تماما لما تنوى فعله ، الهواء بالخارج يصفع أوراق الشجر بلا رحمة ... يندفع فى انفعاله من بين قضيبى الألوميتال المحمول عليهما الزجاج المغلق فى توازى فيحدث صفيراً ينذر بانتهاء كل ماهو مبهج . الإضاءة الضعيفة تعكس صوره قطع الأثاث الخشبية كبيرة

الحجم فيزيد الإحساس ببرودة المكان . تأخذ مكانها على الأرض عند تلاقى ضلعى مثلث الحائط فى آخر البهو الواسع ... تتأمل الأشياء التى وضعتها من قبل . دفتر أوراق بيضاء وقلم أسود ... مرآة مستديرة وإطار فارغ لصوره . كوب من اللبن الحليب وكأس من النبيذ الأحمر ... مصحف كبير وديوان لعمر الخيام علبة سجائر وعدد من قطع البمبون الملون ... دبلة زواج وعقد من اللولى .

ها هى شتات نفسها معروضة أمامها ... أى تناقض تجمع ... كيف السبيل إلى الرضا ؟ يهمهم الصمت من حولها ، فتدق بيدها على الأرض . يخرج صوت من داخلها لاتعرف مصدره .. متهمه أنت بالجحود وعدم القدرة على الرضا .

بعد فترة طويلة من الصمت المثقل بالأحساس بالذنب يبدأ نحيبها فى شرح ضعفها ثم تنفعل دموعها مدافعة عنها متهمة الظروف .. تتدفق أكثر فلا تتحملها رئتاها تتقطع نوبة البكاء تتحول إلى شهقات قصيره متتابعه . تنتبه لصوت نقرات قوية ... منتظمة على الزجاج . تبتسم ثم في محاولة لرد الإتهام عن نفسها .

يخرج صوتها باهتا : أختبرتنى الفضيلة به .

وضعته القيم والمبادىء والأخلاق فى طريقى لتتلهى بمعاناتى .. لتمتحننى أصعب امتحان بحياتى ... لم أختره ... لم أسعَ إليه ... لكنه فجأه ظهر استحوذ على تفكيرى ... بدء من فنجان قهوتى إلى جريده الصباح ... فى حجرات منزلى أجده ... فى إشارات المرور وجلسات الصديقات ... فى كتبى وأوراقى وأحلامى .

طاردني دون أن يعلم هو ... دون أن أقصد أنا . وقاومت ... تسمع صوتاً واضحاً قوياً يعترض « لم تقاومى » بشجاعة تكمل لم أقاوم ... كانت لدىَّ رغبة شديدة فى مجاورته بل الالتصاق به .. وتمنيت لو كنت زوجته أخته أبنته لو كنت جارته أو حتى سائق عربته .

حاصرته أحاسيسى دون خطة أو ترتيب ... أحاطه اهتمامى ... أحتضنه رجائى لمست مشاعره حاجتى إليه ... وإستمال حبى قلبه . وفى نوبة صدق غاب العقل عنها باح لى بحبه وقتها فقط وجدت نفسى ... الىَّ عادت من غربتها ... تصالحت معها ... أحببتها .

قال لى : ستملين ... يوما ما سيكون الفراق قرارك . ووصلنى المعنى الذى يختبيىء خلف كلماته «أنا محصن .. مرتبط .. مشغول».

أكان يقصد أن شكل علاقتنا هكذا لن يكون مشبعاً لي بالقدر الكافى ؟ محقاً كان هو ومخطئة كنت . وكأننى كنت أحاول إقناع فقير محروم بأن يكتفى بالحلم بوجبة طعام فاخره وسيجد نفسه عندما يستيقظ شبعاناً أو ليحلم أنه يسكن قصراً منيعاً فيستطيب النوم فى العراء محصناً نفسه بدفىء الجدران الوهمية . لم أمل ... فقد قبلته كما هو ... أحببته وكل ما يحيط به كل مايخصه وينتمى إليه . فقط بدأت أشعر أننى أكذوبة جميلة بحياته شيء كمالى ... يمكنه الاستغناء عنه بقدر من ضبط النفس ومحاولة التلهى عنه ، مصدراً للرومانسيه المفقوده المفتقده بفعل تعود الأشياء والأشخاص يسعده أحياناً أن يجده ويكفيه معظم الأحيان أن يستدعيه بخياله .

بدأت أخاف أن أتعود هذا القدر الضئيل من عطائه ... أخاف أن

أستطيع التوقف عن طلب المزيد ... أخاف أن يتحول هو أيضاً يوماً ما إلى أكذوبة فى حياتى جميله ... أن يفقد قلمى احساسى به فيأتى يوماً أمسك به لأناجيه فلا يطيعنى . خفت على تلك التعشيقه التى حدثت بين روحى وجسدى بصمغ وجوده فى حياتى من التفكك تمسح بيدها على غلاف ديوان الشعر .

آه صعب جداً ما تطالبنا به الفضيلة بل فوق طاقة البشر . أريد أنا أريد أن أقترب منه أكثر ... إن ألمسه ... أحس أنفاسه ..

أتكوم داخل صدره ... أن لايغيب عنى أبداً ... يعلو صوتاً من مكان ما بين الأشياء أمامها يصرخ فيها ... تغطى أذنيها ولكنه يصلها واضحاً ... « أنانيه ... مادية ... مستهتره » .

أين إرادتك ؟ بخجل ترد . مجرد مشاعر تراودنى أحياناً ... لكنى لم أفعل شيئاً لم أفعل شيئاً كانت مساحة الفراغ داخلى مازالت كاملة يقبع فى أركانها الجوع ... البرد لكنها كانت مسوره بالإراده ... كانت تنتظر أن يتخطاها ويسكنها يزرعها وروداً .. بهجه .. فيعلو صخب الضحكات فيها .. ويشيع الدفىء بهار صوت حوارات لاتنتهى وهو فقط يستطيع أن يعمر أرضى ... هو فقط .

ثم ... إحدى لحظات جنونى أوهمتنى بان لدي قدرة تحمل هائلة ... وبأننى طفله طيبه أقبل إقتسام الحلوى التى تخصنى مع الآخرين دون تزمر وقبلت أن أكون الزوجة الثانية ... نعم تزوجنا ... ولكن ...

تهدأ الرياح بالخارج ... يختفى صوت النقرات على الزجاج ... ينصت الصمت منتظراً تفسيراً لعدم الرضا المشحونة به إلى الآن ... لقد تزوجته .

بحزن ساخط تفسر : سلسلة من الأكاذيب أعيشها .. لاأقوى على ممارسة الحقيقة فليس لى وجود على خريطتها .

ليس من حقى أن أذكر أسمى أمام الآخرين مقرونا به ... ليس من حقى أن أظهر معه فى أى مكان عام ... أسرق بعض سعادتى ... وأتنازل عن بعضها الآخر راضية ... نصف أيامى بلا تاريخ ... نصف أوقاتى بلا زمن نصف فراشى بارد ونصف روحى مسحوباً منى .

لاأريد إقتسام الحلوى مع الآخرين ... لست طفله ... أنا إمرأه كاملة وأريد رجلى كاملاً ... بتعاطف يتسائل صوت آخر ... وماذا عنه ... هو جمع الفضائل الأربع الحكمه والعدل والأخلاق العالية وضبط النفس لكنه ... لم يكن يريد أطفالاً وكنت أتوق لطفل منه . لم يرفض ... لم أسأله فأنا أعلم أنه لا يريد أطفالاً ... تمد يدها لكأس النبيذ ترشف منه ببطء تشعر بيد على ذراعها تهزها وكأنها تحاول إفاقتها فيهتز السائل الأحمر داخل الكأس يتأرجح بقوة .. لاتستطيع السيطره عليه ... تفتح عينيها ... ترى اللون الأبيض يحيط بها ... يغلف سقف الغرفه ... الجدران ...وملاءتان لسرير رفيع ترقد بينهما ... ترى شبح رجل يرتدى ملابس بيضاء أيضاً ... ثم يدأ تساعدها على النهوض .. تسند خطواتها الواهنة ... تصل بها لغرفة مجاورة ... تجلسها مقعداً ما وتمضى ... تستعيد بعض دقائق وعى غير كامل تقريباً تتعرف على وجه أمها ... تلمح ابتسامتها البائسة التى دائماً تستقبلها بعدما تفيق ... هنا نفس المكان ... بنفس الغرفة . تعذبها تلك الإبتسامة المشفقه ... لما لاتكون أكثر إتساعاً أو لا تكون على الإطلاق ... يدخل هو من باب الغرفة .... يمد لها يده يحيط وسطها

بذراعـه ... يسـيـر بهـا إلي الخـارج أمـام الجـمـيع فى الصـالة المزدحـمـه يحتضن يدها يرفعها إلى فمه ... ليقبلها ... لايعنيه أمر الجميع ... لايهمه أن يراه أحد ... أن يتسائلوا من تكون هى بالنسبة له ... بعد مـرضـهـا لم يعـد يشـغله أن يعـرفـوا إنهـا زوجـتـه الثـانيـة .

سارق الضوء

الآلام مبرحه ، غير محتملة ... تفشى المرض بسرعة جنونية ... بدأ فى الرأس وانتقل فى غفلة منى إلى القلب ثم إلى أطراف أصابع اليد اليمنى .

كان لابد من عملية استئصال فورا .. وبصعوبة وقعت بالموافقة على إجراء العملية . طبقت الورقة الممضاه .. وضعتها بجيب البالطو الأبيض ... ودخلت الغرفة التى سيتم فيها المراهنة على حياتى ... على عكس كل حجرات العمليات ، كانت مظلمة تماما ... لا أدوات جراحة ولا ضمادات خالية إلا منى .. مات طبيب التخدير فى وقت ما . لا أعرف متى .

أغلقت الباب خلفى ... استلقيت على طاولة مستطيلة باردة . إرتفعت أصابعى تأخذ مكانها أعلى رأسى ... بدأت تغوص في ثبات وقوة كأنها بريمات حفر كهربائية ... اخترقت فروة رأسى جلدى ... تسبح الآن فى منطقة هلامية ... بدأت تلامس خيوطاً شديد الدقة ... شديدة الرفع ... متداخلة .. متشابكة فى خطوط متقنة الحياكة تحسها أصابعى متوازية أحياناً ، عكسية فى أماكن أخرى . تتقدم فى الظلام بحثاً عن مراكز الإدراك ... الإحساس ... الذاكرة لملمت شلة من الخيوط

... كومتها ... انتزعت تلك الأسلاك الدقيقة الحريرية المسببة لكل أوجاع الحياة ألقيت بها على الأرض ... إنسحبت ببطء حتى خرجت تماماً . كم مضى من الوقت لا أدري ؟ غالباً ساعات وساعات فالظلمة اشتدت حلكتها والعرق الممتزج بنواقير الدم المتصاعدة من رأسى يكاد أن يغرقنى . العجيب أننى لاشعر بالتعب ... مازلت قادرة على المواصلة .

تنتقل يدى إلى صدرى بتحدى مواجهة عدو هزمنى من قبل وجاء وقت الأخذ بالثأر أمزق لحمى ... بعد المزعة الثلاثين فقط الطريق إلي القلب أصبح واضحاً تماماً .. لم أقُدر مهارتى حق قدرها قبل اليوم بعد المزعة الثلاثين فقط .

يستفزنى منظر صعوده وهبوطه فى انتظام وكأنه غير مسئول عن آلامى الضارية . تمتد يدى في شجاعة تتمكن منه .... تنتزعه دفعة واحدة ... تتخلص منه فيسقط إلي جوار الأشياء الأخرى ..

الخطوة القادمة ستستخدم فيها أعلى درجات الإعجاز الطبى ... فاليد اليسري فقط ستقوم بالمهمة كاملة « بتر أصابع اليد اليمنى » وبغير أدوات جراحة كيف تم ذلك ؟ هذا ما أعجز حقاً عن وصفه كل ما أذكره استمتاعى السادى بصوت ارتطام عقل الأصابع ، بالأرض ثم انهار من الدموع تجرفها بعيداً . الآن انتهت المهمة التى استغرقت بغير عدد أو هكذا خُيِّل لى واعترف إنى استعصى على وقف نزيف روحى لوقت طويل وأؤكد أننى قد فقدت حريتى فى مكان ما هنا ... لكن ..

كل هذا لايهم طالما توقفت آلامى القاتلة واستعدت عافيتى النفسية اتجهت نحو باب الغرفه وعندما فتحته صدمنى الظلام والصمت

المخيمان على المكان من حولي . أين اختفى النور الذى كان يتلصص عليّ وقت إجراء العملية من تحت الحافة السفلية للباب ؟ .

متى تلاشى الضجيج الذى كان يصل مسامعى لآلاف من البشر خلف حائط الحجرة يتصنتون على آهاتى منذ دقائق ؟

كلهم ذهبوا بعدما سرق أحدهم الضوء من عينى ... صوت الحياة من أذنى . بخيالى أرى شخصاً واحداً يقف بعيداً بعيداً مادا يده . تُرى أجاء يهنئنى . أم يأخذ عزائى ؟ أم تُرى هو السارق ؟ .

إلا هى

كلما اختلقت عنها حديثاً لئيماً يبدو طبيعياً ... أكاد أموت غيظاً وأنا أسمع كلمات الثناء والإطراء تنهال عليها .. ورغم أن رأيى فيها لم يكن مخالفاً من قبل لتلك الآراء ، إلا أننى أراها اليوم شيطاناً فى ثوب إمرأه لعوب ، تتخفي فى عباءة راهبة ... ريح عاتية تكاد تعصف بسنوات عمرى المستقرة .

كيف لم أتنبه ؟!!

تقضى هى معه ساعات طوال بل تقضى معه يومه كله ، ويأتينى فى المساء محملاً بإرهاق العمل ، مستنفداً كل طاقات القدرة على الحديث المتصل متناولاً طعام العشاء فى معظم الوقت .

كيف لم أتنبه ؟!!

انفصلت هى عن زوجها منذ فترة ليست بالقصيرة ، صحيح لم تُطَلق بعد لكنها أيضاً لم يعد يضمها معه سقف واحد .

ترى هل تعجب زوجى تلك الشقراء النحيفة المزيفة الألوان كامرأة ؟!! لطالما تغنى بجمال سواد شعرى وعيونى ، بلونى الخمرى

وقوامى الممتلىء ، ولكن أليس هناك قول شائع بأن النساء مثل الفاكهة لكل نوع رائحته ومذاقه الخاص ... أيكون زوجى ممن يؤمنون بتلك المقولة ؟!!

أأصدق ذلك الجنون وأهدم المعبد على رؤوسنا جميعا ؟

أألعب دور من لا تدري شيئاً حتى النهاية وأدع المركب تسير ..؟

أأنزل ساحة المنافسة على شيء من حقى ... ملكي ..؟

أأجمع أشيائى وبقايا كرامتى وابتعد ؟

لو لم تأتني تلك الإنذارات المخيفة ... لو يدرك من يتلاعب بى خطورة تلك اللعبة ... لرحمنى من قسوة الشك ، من مشقة البحث عن الحقيقة . فى نفس الموعد تتلازم من جديد دقات ساعة الحائط مع رنين الهاتف ... لكنى هذه المرة أشعر بالتحدي يملؤنى ... لن أرد ... لن أستمع لتلك الكلمات التى تنذرنى بانتهاء حياتى لن أسمح لتلك الشياطين التى تآمرت على جهازى العصبى بتدميرى .

جمعت كل كراهية العالم فى نظراتى ووقفت أسددها لتلك الآلة اللعينة ولم أرد . توقف الرنين .. ارتميت على المقعد كغريق لتوه أخرجوه من الماء . متعبة أنا .. جد متعبة ، سئمت تمثيل دور الزوجة العاقلة ، استنفدت محاولات علاجى للأمور بالروية ، مللت إدعائى أن الأمر ليس بهذه الأهمية ، حقيقة الأمر أننى أقترب من الجنون فلما الإدعاء ؟ سأواجهه . فلأسمع دفاعه أو نفيه ، فليشاركنى قلقى أو ينهى عذابى . ربما لو أخذنى بين ذراعيه وهمس فى أذنى ببعض كلمات حب دافئة ونفى مقنعة ينتهى الأمر برمته واستريح .

فى كـامل زينتى أنـتظر عـودته مـغلقـة على توترى كل الأبواب بأحكام مـعلقه على شفتىً ابتسامة ودودة ترجوه أن يأتى قبل أن تسقط أسمع صوت مفتـاحه يدور بالباب .. يتقدم نحوى بسرعة تسبقها كلماته ... يلقى بتحية المساء ويكمل .

- حبيبتى من فضلك جهزى لى بدلة أخرى إلى أن أنتهى من حمامى تسقط ابتسامتى منى ... محبطة أؤنبه بكلمات بريئة .

- أستخرج ثانية . يرد :

- حالاً .

إتبعه إلى غرفة النوم ، يخلع ملابسه وهو يكمل عشاء عمل .

أسأل ومتأكدة أنا من الجواب .

- طبعاً «منى » معاك . يؤكد .

- طبعاً

ألقى بكلماتى معتقدة أننى صوبت نحو الهدف .

- ألا تتـعب أبداً هذه المرأة . فتـأتينى نظراته تكاد تخرق وجهى مدافعة عنها بحدة .

- هذه المرأة لم أر مثلها من قبل ، أتعلمين أين هي الآن ، إنها تنتظرنى بالشارع فى السيارة حتى توفر لى الوقت الذى نضيعه الآن .

كماسورة مياه لتوها دُقت بآلة حادة أنفجر .

- فلتسمعنى أنت الآن أرجوك لم أعد أحتمل أكثر من ذلك .

تجمده نبرة صوتى العالية ، يلتفت إلى ومعه كل دهشة العالم وتتدفق كلماتى غاضبة صارمة . منذ فترة وأنا أتلقى هواتف شبه يومية لا أعرف ممن تؤكد لى وجود علاقة بينك وبين سكرتيرتك الحسناء علاقة ستؤدى إلى الزواج قريباً بمجرد أن تنتهى مشاكلها وتصبح حرة ! وقبل أن أكمل حديثى يعاود حركته متجهاً إلى الحمام ، كأننى لم أقل شيئاً ذا بال يتصرف بطبيعية وعند الباب يواجهنى بثقة .

– حبيبتى ... « فلتخوضى » فى أى منطقة تعجبك ، فلتشطح أفكارك كيفما شاءت ، فلتمارسى دور الزوجة بكل ألوانه ، فلتتمتعى أو تتعذبى به ، كل شىء وأى شىء مسموح لك إلا هى !

أرقب إصبع يده وهو يصعد ويهبط فى حركة تحذيرية ثم أسمع صوت إرتطام الباب خلفه .

يضيع رد الفعل منى ، لاأعرف ما الذى سأفعله بلحظتى القادمة ، أبحث فى لغتى عن كلمات مناسبة لهذا الموقف ، كل ما يحضرنى علامات استفهام .. إشارات تعجب .. نقاط توضع بآخر الجمل لتغلقها

يتوقف صوت انسياب الماء بالداخل ... يخرج من الحمام ليبادرنى من جديد .

– « منى » تعنى عملى ، علاقاتى العامة التى تأتى لى بالعمل ، عقل آخر يضاف إلى عقلى لأحقق بهما معاً أكبر قدر من النجاح ، بوضوح أكثر هى يدى وقدمى ، هى الأمس يوم كانت شركتى تخطو أولى خطواتها ولها فضل الحاضر ولا غنى لى عنها فى المستقبل ، أرجوك ، أرجوك إلا هى .

ينتهي من ارتداء ملابسه ، ينحني على وجنتي ليسقط قبلة عليها قبلة لا معنى لها ... يتركني ويذهب إليها .

يتركني ومعي ناقوس يدق برأسي مردداً

إلا هي ...إلاهي ... إلا هي .

العين بصيرة واليد قصيرة

ما الذى يمكن أن يحدث لو فعلت ؟؟ لا شيء مهول .

لن تتوقف الكرة الأرضية عن الدوران ... لن أشارك فى إلحاق الدمار بالعالم ، فهناك من يقومون بذلك بالفعل دون طلب للمساعدة ..

لن تغوص البشرية فى غياهب الضلال أكثر مما هى فاعلة الآن ... لن تنطفىء شعلة الفضيلة ، سيظهر فوراً من يحملها من بعدى ممتناً شاكراً لى إفساح الطريق له .

حتى هى ، بعد هذا العمر الذى عاشرتها فيه بما يرضى الله بالتأكيد ستفهم ... ستقدر أن الأمر لم يكن بيدى السيطرة عليه وتقاعست لن تطول صدمتها وسرعان ما ستستعيد ثقتها بنفسها وتُرقِد الأحداث الأليمة تابوت النسيان ، وتستمر .

أما عنهما ، فأعتقد أننى قد أتممت رسالتى تجاههما على خير وجه صنعت من الولد رجلاً يستطيع الآن إكمال الرحلة معتمداً على نفسه بعدما حصنته معنوياً ومادياً .. أعلم أنه سينجح ويوماً ما كرجل سيُقدر.

أما البنت فقد أزاحني جانباً رجل آخر ، واحتل عرش القلب كاملاً « إنها سنة الحياة » المهم أنني أثق به ، وأطمئن عليها معه ، ربما يحزنها الأمر لوقت أطول ، لكنها بمجرد أن تنجب طفلها الأول ستنشغل عن أمري بتفاصيل حياتها الجديدة .

وليمارس الآخرون متعتهم في إلاكة سيرتي والتعجب من أمري والتحسر على ما أصابني إلى حين تأتيهم الأيام بأحداث جديدة تسرق الأضواء من قصتي فأنعم بالسلام .

سأنعت بالجنون لبعض الوقت !! ياله من ثمن بخس لشراء حريتي فلأعش ما تبقى كما أريد ... لا كما وجب ... لأملي عينيّ من تطابق صورتي الحالية بصورة ما كنت أرجوه لنفسي من زمن .

وتاريخي ؟؟ لالن يُمحي تاريخي الذي صنعته بالجهد والعمل المُضني ربما يضاف إلى سيرتي بعض الأخطاء وهذا أقرب إلى الطبيعي ، فما أنا إلا بشر ولست أحد الأولياء . ثم أن تاريخ العظماء على مر الزمان يكاد لا يخلو من ذكر نقائص لهم ومع ذلك مازالوا عظماء رغم أنوف الحاقدين ، بل أستطيع أن أجزم بأن الأسوياء تماماً ... المعتدلون جميعاً ... أصحاب نظرية الوسطية عن آخرهم لا يجوز لهم أبداً أن يكونوا عظماء فلا حُلم يُحرك أفكارهم ... ولا جرأة تحقق أحلامهم ... ولا جنون يجعلهم مبدعين في التطبيق . متوسطو الأمكانات لا يناسبهم سوى تبني الشعارات التي تحيل الحركة إلى ثبات ليبقى الحال على ما هو عليه ويدافعون عن رمادية مواقفهم بأمثلة « كالعين بصيرة واليد قصيرة » و « أمشي سنة ولا تعدى قنا » ، ولو علمتم الغيب لاخترتم الواقع وما إلى ذلك .

استكان تمرده للحظات ... صمت المونولوج الدائر ... فند كل الأمور . رأى حلولا لكل المشاكل ثم أكد لنفسه من جديد ، لن أتراجع ... الفرق بين من يقدم على التغيير ومن لايقدر عليه لادخل له بالأخلاق والمثل بل يحكمه فقط حجم الجبن داخل كل منهما وأنا لست جباناً ، سأكسر أصنام الروتين ... المفروض والواجب وستكون القسمة أكثر من عادلة ... ثلاثون عاماً التزام ... عطاء وانضباط ، أمام عشرون عاماً أن كتب لى من الحرية .

حَزَم أ مره ، ومع حقيبة صغيرة اتجه إلى البيت البعيد آملاً أن يصل هناك إلى قرار بكيفية تنفيذ مانتواه ، يريد أن يحدث الأمر دفعة واحدة جريئة قاطعة ولكن ليست حادة فمازالت تربطه بحياته السابقة مشاعر طويلة العمر واعتياد أ طول ، صحيح أنه كان من دواعى ملله لكنه الملل المشوب بالسهولة والراحة ، وتراءت له حياته كقرص شمعى تمدد فوقه لسنوات طويلة فأحدثت فيه مقاساته بفعل الوقت انحدارات هنا ونتوءات هناك فإذا بها قالب مجهز يضم كيانه ... ويحفظه ... ويخنقه فى كثير من الأحيان فلا مساحة فيه لأن يتمطي إذا أراد ... أو أن يُعدل من وضع قدميه إذا ماآلته ... أويتحول برأسه إلى جهة أخرى حتى لاتتيبس .. وإلا حدثت انبعاجات لامكان لها فى الأصل واختل التطابق .

يعاود الانصات لحديثه الصامت ... يهز رأسه فتطاوعه بليونه لم يعهدها منها إلا قليلاً ... يؤكد « يجب أن أعيش ماتبقى بطريقة مختلفة » بالطبع لن أتخلى عن مسئولياتى فقط سأفسح لرغباتى مكاناً إلى جوارها ، منطقة حرة تتنفس فيها .

دخل صومعته التى لم تطأها قدماه منذ شهور قاربت فى عُدها العام . بكعب قدمه الخلفية أغلق الباب فأحدث صريراً معترضاً لإيقاظه فجأة من نوم عميق .

أمام مكتبه القديم وقف .. ببعض الأوراق الموضوعة فوقه نفض أكوام تراب سكنت المكان بوضع اليد .. أحدث زوبعة أضطرته للتراجع المؤقت مغمضاً عينيه ، زافراً من أنفه وفمه مؤنباً نفسه « ماكان يجب على أن أترك المكان مغلقاً لمدة طويلة هكذا » ثم مبرراً لها « مشاكل الحياة ... التكاسل والاستسهال » .

جلس فى مواجهة الدرج الأوسط ... سحبه ... أفرج عن أشيائها القليلة المحبوسة فى أخر ... ابتسم لوجهها الغائب ... حدثها « كم هى مميزة هداياك البسيطة ، كم تشبهك ، ورسائلك تلك الرقيقة التى طالما أرضت غرورى مازالت تحمل عطرك .

أرجوك لاتلومينى لحبسها سنوات فى هذا المكان الضيق ، هئنذا أفرج عنها وعنك وعن نفسى ، لاتنعتينى بالأنانية فآخر شىء أردته أن أكون أنانياً لذا تأخرت سنوات واحتملت قدر ما استطعت التحمل وكنت أعلم أنك الوحيدة القادرة على تفهم الظروف .. المسامحة ... الإنتظار .

والآن حان الموعد . سأخذك ونرحل .. لن أعدك بقصر ولا لآلىء وبأننى سأطوف بك بلاد الدنيا وأريك مالم ترينه من قبل وبأنى سأمهرك نصف قرص الشمس وكل وجه القمر ... لوأدعيت ذلك لفضحت سنواتى التى تعدت الخمسين كذبى ، فأنا لا أملك إلا ماتبقى من عمرى

وسأهبه لك وحدك ... سنقترب مثلما أردت دائما ... سنلتصق مثلما تمنيت دائماً سنبدأ حوارا لانهاية له ... سنتقاسم تفاصيل الحياة جميعها ... سترخى لها أيادينا لتغمرنا بما لديها ... سنترك لها القيادة لتذهب بنا أين تشاء متى تشاء ونكتفى بأننا أخيراً معاً .

لسعة برد تتسلل إلى أطرافه ... يبحث عن مصدر الثغرة المُسَربه لها يكتشف أنه فراغ أحداثه سحب لطرف الغطاء الملفوف حول جسده ، نتج عنه بالتبعية تحريك لوضع الوسادة التى يحتضنها بين ذراعيه .. يتنبه ... أنفاس منتظمة مطمئنه تتردد إلى جواره ، تفرقت على إثر زفيرها أفكاره ... تشتتت قدرته على تذكر قراره .. قطعة من الأسفنج ظهرت فجأة امتصت نشوته الوهمية فى ثانية .

يُعدل من وضعه ... يتمدد فى قالبه الجاهز ... يحدث التطابق ... يجر الغطاء بحرص وهو يهمس فى استسلام « حقيقة الأمر أننى أكثر الأسوياء سوية بل أحد مؤسسى نظرية الوسيطة الأوائل » وصدق من قال العين بصيرة واليد قصيرة .

أمنية مستحيلة

أعلنت ساعة الصفر بدء المهمة .

ارتدينا معاطف داكنة اللون .. أخفينا شعرنا تحت « بريهات » صوفية .. وضعنا على أعيننا نظارات سوداء .. انحشر ثلاثتنا فى المقعدين الوحيدين بالعربة ... أسدلنا غطاءها لنختبىء تحته وانطلقنا فى طريق المطار .

أضاف صوت اندفاع سقوط المطر على السطح الجلدى للسيارة مزيداً من الإثارة على الموقف ... ولعب التوقيت دوره فى نشر ضوء رمادى من حولنا ... اعترانا القلق للحظات تناوبنا فيها النظرات بيننا وساعات أيادينا .

باغتتنى صوت إحدى صديقتى يلومنى على فضولى ، يتهمنى بالبحث عن المتاعب ، يؤكد إشتراكنا جميعاً فى صفه التهور ، بينما أيدتنى ضحكة ماكرة من قائد السيارة أعلنت رضاها عن قيامنا يهذه المغامرة . بدأت دقات قلبى تلهث داخل صدرى ونحن نقترب من مبنى المطار ، وأمام باب صالة الوصول ... لمحته يقف هناك .

خرجتا من العربة مدججات بشماسي المطر .. في مكان ليس ببعيد عن مسرح الأحداث شرعنا في فتح مظلات التمويه الواقية من الكشف عن شخصياتنا ... ولم يطل إنتظارنا ، دقائق قليلة مرت دفعت بعشرات السيدات إلى الخارج مع غيرهن من القادمين ... عشرات من السيدات بينهن واحدة فقط تهمني ، اتلهف على رؤيتها بشوق يفوق شوق كل المنتظرين ... أنقل بصري بينهن أستبعد البعض وأصدر برجاء الأمر لصديقتي بمتابعة الباقيات .أسائل نفسي بإشفاق عليها :

ترى أي واحدة منهن المرأة التي عذبتني كثيراً دون أن تدري ، من التي حرمت عليَّ النوم ليال طوال وأنا أتخيلها إلى جواره يضمهما فراش واحد ، تقترب منه ... تستنشق هواء أنفاسه ... تذوب في عناقه وتتوحد به ؟؟

أتكون تلك الشقراء الفاتنه شديدة الاهتمام بنفسها ؟

أم تلك السمراء المغرية بوجنتيها البارزتين وفمها الممتلىء ؟

ولما لاتكون هذه الهيفاء التي تتلفت حولها ثم تنظر ناحيته ؟؟

أحول بصري إليه عله يساعدني على تحديد الهدف ، فأرى سيده وقوره تتجه نحوه يلتف حول وجهها ويغطي رأسها « إيشارب » فاتح اللون يخفي شعرها فلا أتبين لونه ... تتسع حدقتاي تحدجها ثم ترقب تعابير وجهه بدقة شديدة وهو يمد يده ليدها ... ألحظ حيادية مشاعره وقت إستقبالها فأتنفس الصعداء ، أؤكد لهما بفخر إن اللقاء خال من الحرارة فتصدقان على ملاحظتي ... يتناول منها حقيبة جلدية صغيرة الحجم تبدو خفيفة الوزن فألفت نظريهما لمدى فهمه ولياقة تصرفه

فتوافقانى من خلال إنشغالهما بالمراقبة ... يتركها ويذهب لمكان ما ... أتبعه بنظراتى إلى أن يغيب عن عينىّ فأتحول إليها ومن خلف الشاشة السوداء ، بحذر لص مبتدىء ، أبدأ فى سرقة صورتها .

آن لك ياخيـالى المتعب أن تستريح ... أن ترخى أوتارك المشدوده ..

هاهى المرأه التى أرهقتك طويلاً فى محاولاتك رسم صورة لها .. المرأة التى تحيز لها القدر فأعطاها بكرم شديد لمجرد أنها جاءت قبلى وقت كنت تائهة أنا أبحث عنه ، هاهى تقف أمامى وأراها بوضوح .. أعلق بهمس مسموع : دقيقه الحجم أليست كذلك ؟ فيرد صوت آخر علىّ متناسقة الملامح أيضا .

أتفحصها ملياً وأؤكد : تبدو أكبر مما ظننتها بكثير ، أكمل بملامحها شيئاًيبعث على الراحة ، مسحة هدوء ... حياء ... نوع من التعالى على مظاهر الحياة الزائفة .

ثم أنتبه إلى اكتشاف غريب !! فيرتفع صوتى : تصورا أن بها شبهاً منه .. شيئاً منه لاأعرف ماهو بالضبط لكنه يؤكد وجود علاقة ما بينهما ، يخبر عنه ، يُشير إليه ، يجبرنى على أن أتخلى عن مشاعر الحقد عليها أو الغيرة منها ... يدفعنى لسحب جنودى المتحفزة على الصفوف الأمامية للهجوم أو الدفاع ، فلا معركة هناك ... لا مقارنة ولا منافسة ... بل الأعجب أن بى رغبة فى عقد معاهدة سلام بينى وبينها ولو كنت أستطيع ، لتركت لها الساحة بأكملها وتراجعت .

تتبادلان نظرات التعجب الشديد من أمرى وتتمنى إحداهما لو أن معها ورقة وقلم لتأخذ على تعهداً مكتوباً بالتنفيذ فأستدرك متراجعة :

لكن ... ما حدث لى معه حدث بأبسط وأعقد مما يتصور أحد .. حدث بتلقائية طرفة عين ... بسهوله غفوة طفل فجأه فى منتصف الحدوته بربانية هطول مطر فى غير أوانه ... بحتمية ذوبان قطعة سكر فى فنجان من الشاى صب لتوه ... هكذا وجدت نفسى غارقة فى حبه .

لو تستطيع هى أن تساعدنى ، أن تخبرنى كيف يمكننى احتمال صراخ ايقاظ البراءة . إحتمال عقاب معاندة الطبيعة ... لو تدلنى على كيفية ممارسة سحر يخرج بلورات السكر المذابة فى قطعة صحيحة من جديد أو يحيل كمياء التوحد شتاتاً دون احتراق ... لو تستطيع لتراجعت دون تردد .

أتى بسيارته وأمامها توقف ... صعدت إلى جواره بتأن ، أغلقت الباب خلفها بجذبة ضعيفة ، لا مست ذراعه صدرها وهو يمدها للتأكد من سلامة إغلاقه فشعرت ببداية قيام مظاهرة فى أعصابى . نبهتنى أحدهما « بإستفسارها عن تغير لون وجهى » لضرورة الإسراع إلى السيارة للحاق بهما .

ركضنا خلف خطوات العجلات الأربعة على الطريق من مكان يتيح لنا رؤيتهما دون أن يلحظانا ... أخرجت نظارتى الطبية وأبدلتها بالأخرى فأصبحت رؤيتى أكثر وضوحاً .

مال عليها برقته التى أعرفها ... همس بأذنها طويلاً حتى خلته سيبقى العمر كله على وضعه هذا ... تقصلت أحشائى وشعرت بآلام حادة تعتصر معدتى ... أدارت رأسها نحوه وهربت من بين شفتيها

ابتسامة واسعة ، أمسكت بها على مهل .. فتعجبتُ بتهكم :

ترى ما الذى قاله لها أسعدها هكذا ؟؟ ولم أتلق إجابة مرضية ممن معى بدا لى أن لحظات صمت وجيزة قد مرت بينهما ، ثم بادرته هى بحديث أعطى له كل إنصاته وأخذ منى كل تركيزى ... ربما تحدثه الآن عن أحد أولادهما ، أو تسأله أن كان قد قام بإصلاح « شىء ما » بالمنزل كانت قد طلبته منه قبل سفرها ، وربما تذكره بموعد زيارة عائلية مشتركة متفق عليها من قبل . بالطبع هناك عشرات الموضوعات التى تجمع بينهما فى إمتداد طبيعى لأحداث عمرها سنوات وسنوات . ساد الهدوء بعد أن أوشكت المهمة على الإنتهاء فأتاح لى الصمت تقدير الموقف تقديراً صحيحاً .

الأمر ليس بسيطاً كما تصورت ... هناك مقارنة ... منافسة يُحْكِمْها قدر غير أمين .

أنا أيضاً أستطيع أن أعطيه بيتاً هادئاً وأطفالاً ..

أنا أيضاً قريبة منه ... أفهمه جيداً ..

أنا أيضاً أريد أن أختبىء من عيون الناس فى ثوب فضفاض وطرحة بيضاء فلا أتعطر ولا أتزين إلا لعيونه هو وحده ...

لكنه ليس لى ... عاودتنى تقلصات معدتى .. زاد حماس مظاهرة الاحتجاج بأعصابى فأضاءت المشاعل وبدأت أحس بلهيب نارها .

أوقف سيارته أمام المنزل ... خرج منها ... ساعدها على النزول

... سارا جنب إلى جنب يكاد يلتصق كتفه بكتفها ودخلا معاً من بوابة واحدة .

في طريق العودة غلبني الإحساس بالقهر فأنهمرت دموعي بعد أن فشلت في السيطرة عليها ولم تجد معي محاولات تهدأتي ، تأنيبي ، إقناعي بتقبل الأمر الواقع إلى أن داعبتني إحداهما بكلمات متعجلة : « تمني أمنية حالاً وستتحقق فهناك « شهاب » يحترق في السماء ، أسرعي قبل أن يسقط » ودون تفكير في معقولية ما قالته لي على الفور تمتمت بأمنية مستحيلة وأنا أجفف دموعي ..

طعم الحياة

كم مضى من الوقت علينا ؟! عام وبضعة أشهر .. طوال هذه المدة لم أنجح فى التعبير عن نفسى ... طوال هذه المدة لم ينجح فى فهمى ، اقترينا حتى كدنا نتلامس ، وحال دون توحدنا منطقنا المتشابه . نعم يجب لانغلاق الدائرة من «سالب وموجب» أما نحن فكلانا كان سالباً .

مصرة كنت على ألا أخلع ثياب النيل ... على أن أغلق كتاب الماضى على عدم النبش فى صفحاته ... ، عن الترفع على نقده لكسب قضيه كونى ضحية ... مظلومة بالأدلة والبراهيم ... رفضت الوقوف على اطلال حطام الغير حتى أعلو فيرانى بوضوح ... رفض كبرياتى الكشف عن امتهان إنسانيتى لأعوام طويلة ، وظننت أنه وحده سيفهم ، ظننت إننى معه غير مضطرة للدفاع عن نفسى . وأصرت مثاليته على عدم الاعتراف بوجود منطقة وسطى بين الأبيض والأسود .. بين الصواب والخطأ .. يعرف أن المعاناة موجودة لكنه لا يتصور لها حلاً سوى التحمل والصبر والتضحية . يعلم أنه لا حكم لأحد على الأرواح إذا ما هامت ويؤكد أن مجاهدة النفس قادرة على استرجاعها دائماً إلى الطريق الصحيح . يؤمن أن المؤسسات الاجتماعية خير نظام لحياة البشر ويغفل أن الانسان هو الأصل ، هو صانع تلك الأشكال الاجتماعية لتحقق له

صالحه وسعادته وهو القادر على إبدالها إن لم تفعل . وحال بيننا كونى طلقة .

لماذا توسمت فيه القدرة على أن يقف على ماخلف زينتي .. لون عيني .. شكل جسدي وهو رجل ؟ لا أدرى ... ألأنى لم أره أبداً كالآخرين ؟ صنفته فريداً لايرقى له أحد . رغم ذلك استطاب له أن يري لوناً واحداً من قوس قزحي لم يستطع تصور أن لى ألوانا سبعه ، وكأنها أحد العجائب أن تكون هناك إمرأه كاملة .

امرأه رغم اهتمامها بالأناقة والتجمل تستطيع تحمل مسئولية بيت وأسر بقدر ماتعرف متى تكون ابنه لرجلها تعرف متى تكون له أماً . وبقدر ماهى رومانسيه وعاطفيه ... قادرة على إسداء المشوره والرأى الصائب في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة .. امرأه تعرف كيف تتحدث بعقلها بنفس مهارة التحدث بجسدها ... تعرف متى تجلس إلى جواره كسيده صالون ومتى تجلس عند قدميه وتسيده .

ربما تكون مشكلة حقاً أن توجد مثل هذه المرأة ... فمن الصعب على أى رجل أن يملكها وحده ويطمئن إلى أنه يكفيها .. والأصعب أن يتركها لغيره ويستريح بعد ذلك .

وهذه كانت المعادلة الصعبة التى لم يستطع تحمل قبولها عقل زوجى لفتره طويله ... إلى أن كان الانفصال .

والآن أمر معه بنفس المأزق .. أختار وجهاً واحداً من وجوهى ليتعامل معه .. يعتبر وجودى بحياته ذنباً يحاول بشتى الطرق التكفير عنه ... لكنه لايدعو الله بنيه خالصه أن يغفره له ولايعرف أن وجودى بحياته حسنة سيثاب عليها .

ظلت بداخلى عشرات الحكايا لم تقل ... ولن تقال فلست ممن يجيدون إستدرار عطف الآخرين . وكلما أنتْ جراحى سَكَّنْت آلامها بأمل أنه يوما ما سيعرفنى ... سيكتشف عن طريقى أن هناك منطقةً وسطى بين الأبيض والأسود .. سيعرف أن فى دنيا البشر مساحه أوسع للأحكام تسبق الرحمه فيها العدل .

لكن .. مضى عام وبضعة أشهر ، لم تنغلق الدائره بعد . مازلت بعينيه تلك المطلقه الحسناء المسموح لها فقط بأن تحوم حول حياته دون إختراقها ... بإرسال عطرها مع النسمات من بعيد دون غرس ورودها فى حديقته ... قطه الجيران الروميه الجميله الذى يسعده أن تتمسح فيه أو أن يداعبها وكله حرص من أن تظهر مخالبها فجأه وهو غير مستعد لها

ولم أعد أحتمل ... أصبح علىَ أن أحسم أمرى ... فقدرى ألا أجد نصفى التائه عنى أبداً ... سأخبره اليوم أننا يجب أن نفترق .

أتصور أنه لن يعترض ... ربما ارتاح ضميره إن القرار قرارى ، لكن لن تمر عليه تفاصيل انتهاء قصة الحب الرومانسيه تلك بسلام فأنا لست إمرأه ككل النساء .

بعدما أرحل سيزداد حضورى ... سيظل أريجى يعبق أركان حياته وإذا ما حاول أن يعزى نفسه قائلاً « كانت إمرأة أخطر من أن تبقى » سيعترف صدقه أننى أيضاً أمرأه أصعب من تُسلى .

إذا ما أكد لنفسه « كانت شحنة من الديناميت موقوته لا يأمن من يملكها حياته » سيقسو عليه الشعور المهين بالجبن ... الهروب من

الميدان عند أول إشارة تراجع سيستفز رجولته ضياع متعة الاحساس بلحظات الفخر بالجرأة والشجاعة . وإذا ما صادفت يده رسائلى ... سيفتقد من جديد كلماتى التى كانت تردد فى محرابه أناشيد الشوق والوحشه .

إذا ما استرجع كلماته لى « تشكلين أنت ذلك الثالوث المحرم على كل رجل لديه طموح وحتى على أى رجل يجنح للهدوء » .

« لو كنت أقل ذكاء لكان من الممكن أن أقتنيك ... أضعك فى علبه من القطيفة الحمراء وكلما رجعت إليك وجدتك تنتظرين .. لو كنت أقل جمالاً لتركت لك مساحة أرحب تمرحين بها لتتسلى إلى أن أعود .

لو كنت أقل حساسيه لرحمتينى من الإحساس الدائم بمسئوليتى عن كل أفعالى وكل كلماتى » .

سيكتشف أن ذلك الثالوث المحرم هو الألوان التى تجمل صورة الحياة . سأعذبه بحرمانه منى ... سأمضى وآخذ معى مفردات الحب السحرية الشوق والانشغال ... الإنتظار والترقب .. اللهفة والرغبة ... سآخذ ذلك السر الرائع معى فأحرمه متعة إخفائه ... الخوف منه والخوف عليه ووقتها لن يبقى له سوي روتين الحياه فاقد النبض وستعود للأشياء وظائفها المعتاده البارده .

لن يكون الهاتف إلا آله جامده وظيفتها إستقبال مكالمات متوقعه ومجاملات مملة .

والعمل ليس أكثر من عمل يؤدى بكثير من الجهد بلا انتظار لأحداث تخفف من وطأته وتجدد الرغبة فيه .

سيبقى حال الأهل والأصدقاء وجوهاً بلا ملامح ..

كل الأشياء ستحجم بحجمها الطبيعى العادى ... سيتقلص الخيال وتتبرمج الأيام فيسقط عنها ذلك الثوب الوردى المطرز يدوياً بدقة واتقان ويظهر من تحته الزى الموحد المشابه لآلاف الشباب فى كل مكان .

لن تكون هناك أمواج بالبحر الهادىء يتمتع بتفاديها ... أو التغلب عليها أو الغوص فيها ... ستتوقف الدهشه ويختفى اللؤلؤ فى المحار .

سأنسحب من حياته ... وأسحب معى طعم الحياة .

يوم خاص جداً

بعد هروب اضطرارى متواصل من الشوارع الواسعه النظيفه المغلقه إلى أخرى ضيقه قذره تصورنا فيها فرصتنا الأخيرة ... مروراً بأحياء شعبية فقيرة غاية الفقر ... بعد دورة طويلة أكدت عمليا كروية الأرض والتحام دوائر عرضها ... انفلتت الأعصاب من شدة التوتر واليأس من الخروج من مصيدة الانتظار وأستسلم الجميع أخيراً لحقيقه أنه لا فرار ولا مفر من الانضمام إلى القطيع .

للمره العاشرة وبعصبية شديدة أطفأ السائق المهذب محرك السيارة بعد أن نفد عند المرة التاسعة كل مخزونه من الصبر والهدوء . ومن المقعد المجاور له انطلقت زفرة تأفف حارة ضاقت بتقييد حيوية أعوامها التسعة ، بحبس حريتها فى مقعد السيارة الذي لا يسمح لحدود حركتها أن تتعدى سنتيمترات قليلة فى أى اتجاه من الاتجاهات . وفى المقعد الخلفى جلست إلى جوارى زائغة النظرات تضغط على أسنانها بمعدلات بدأت بطيئة فى الساعات الأولى ثم شبه متتابعة وقد انتظم رتم أصابعها التى تدق بها بسرعة عجيبة على حقيبة يدها .

وحدى كنت أراقب ذلك الوضع المهين بانفعال أحكمت ضبطه بجهد كبير مقنعاً نفسى بأن ساعات القهر التى نعيشها الآن غير موجهة إلينا

بشكل شخصي ، ولاتخصنا وحدنا ، بل وللحقيقة ليست جديدة علينا وأن كانت اليوم قد اتخذت شكلاً سافراً ، مكثفاً ومستفزاً .

أحاول التخفيف عمن معي بكلمات جعلتني أبدو وكأنني قادم من عالم آخر مكسو بالجليد . « لابأس بما يحدث ... فلنعتبره أحد تمرينات اليوجا ، فرصة جيدة لتهذيب النفس وضبطها ، وتجربة الصبر الجميل » فلا يعير أحد فلسفتي الباردة أي اهتمام وكأنني لم أتحدث على الاطلاق فأعود إلى نفسي متعجباً منها وليس منهم وأحاول الانشغال في تأمل ما حولي .

منحشرين نحن بين عشرات السيارات على الجانب الأيمن من الطريق نتلاصق وغيرنا مع صفوف أخرى من العربات القادمة من الاتجاه العكسي وعلى مرمى البصر للأمام والخلف لا تبدو نهاية لجميع أنواع وسائل النقل التي تقف بلا حراك ، فُتحت النوافذ كلها على جانبي الطريق .. تراصت فيها الرؤوس تطل علينا .. توقف السائرون عن السير أخرج أصحاب المحال التجارية كراسي خرازانيه إلى الأرصفة وأحتلوها ، وأصبحنا نملأ الصورة .

بالصدفة البحتة تحولنا إلى أبطال في رواية مأساوية حبكت أحداثها بلا سيناريو وقد بلغت ذروة الحدث ووصلت إلى العقدة في ساعات قليلة وعلا صوت الحوار فإذا بالشعب الطيب يتحول بعبارات سخطة وتبرمه الفردية خفيضة الصوت إلى أحاديث متشابكة عالية واتسعت دائرة الحوار لتشمل السائرين والجالسين على الأرصفة ومن بداخلها ومن بداخل العربات الخاصة وسيارات الأجرة وحكى كل إلى جاره أحداث يومه وخط سيره وعدد أولاده ومايحصل عليه من دخل

وأراءه فى الحياة واتجاهاته السياسية امتص الحديث حدة غضب معظم الناس الطيبة بشكل نسبى ليؤكدون إنه فى كل أزمة يمرون بها أنهم شعب ودود ، متسامح غارقاً فى التفاصيل حتى أذنيه ، غير قادر على الوصول بغضبه لدرجة تحريك الأحداث .. وكأن حتى الغضب أصبح من الكماليات التى لايقدر عليها كل الناس .

أتوبيس مدرسى محمل بتلاميذ لاتزيد أعمارهم على العاشرة نظموا بتلقائية مظاهرة احتجاج فتعالت أصواتهم بشكل جماعى مستمر ومثير « عايزين نروح ... عايزين نروح وقد أخرج البعض منهم أيديهم من النوافذ ملوحين بها بقوة تقاوم تيارالهواء الشديد فيغلبها ويدفع بها إلى الخلف فيضعف قوتها ويحيلها إلى مجرد عصى نحيفة مهتزة ، بينما يخترق ذلك الحماس المغلوب بكاء حار لبعض الأطفال ويلف نوع من الذهول والاستسلام البقية منهم وقد ألصقوا الوجوه بزجاج النوافذ المغلقة فانبعجت أنوفهم ومُطت ملامحهم تحت ضغط الزجاج فشوهت براءة الطفولة فى وجوههم .

« بابى ... حاسة تعبانة ... وريقى ناشف عايزه أشرب حاجة » ينخلع من تأملاته مرعوباً ... يدرك خطورة الموقف ... بسرعة يسحب حقيبة يد زوجته من تحت أصابعها فيوقف الدق الذى لم ينقطع ... يعبث بها باحثاً عن بعض قطع الحلوى أو الشيكولاته التى تحملها دائماً معها لأمثال تلك المواقف الطارئة ... يُخرج عن هدوده ويرفع صوته مؤنباً « ألم تحملى معك أى نوع من الحلوى للبنت » فتقابل حدته بمثلها ... « المفروض إن المسافة من بيتنا لبيت أمى خمس دقائق ... خمس دقائق فقط » .

تُسقط الصغيرة رأسها على ظهر المقعد بكسل فيمد يده يتحسس يدها فتنقل البروده الشديدة ليدها النار إلى قلبه .

يقفز من العربة فيصتدم بابها بباب أخرى ملاصقة ... ينفلت بأعجوبة من وضع الانحشار الذى وجد نفسه فيه ... يجرى لأقرب بقالة يحضر أكواماً من الشكولاته والعصائر ليحاول بها استرضاء ذلك المرض السكرى الأسم المر المعاشرة يلقمها ما أتى به وهى مستسلمة بين ذراعى أمها فى إغمائه يعرف معناها ولشد ما يخافها ... ينطلق السباب من فمه دون وعى منه ... تنتقل عدسات العيون من الحدث الأكبر للحدث الأهم ، تصبغ الوجوه باللون الأصفر ويأتى من الخلف صوت آخر يكمل دارمية الموقف صوت لسارينة إسعاف بها من يستغيث ولامن مغيث .

دقائق مرت قبل أن يستطيع ترجمة الأصوات التى أحاطتهم ... دقائق قبل أن تصل إلى مسامعه كلمات مرادفة لبعضها البعض ..

« الحمد لله - الحمد لله على سلامتها - ربنا كبير ... ماضاقت إلا مافرجت » فيصرخ بصوت محبوس « ده اللى احنا فالحين فيه ... ده بس اللى احنا فالحين فيه » .

يتفرق الناس من حولهم ليتجمعوا حول سياره مرسيدس بيضاء حديثة تحمل أريال تليفون وستائر تغطى الجوانب والزجاج الخلفى وقد جذبهم إليها صوت عال آت من داخلها يهدد ويتوعد ، يشجب ويندد فى الهاتف وكأنه يحدث نفسه فلا كلمة واحدة يجوز اعتبارها رداً على حديث طرف اخر فى المكالمة ... وتتردد كلمات قوية موحية تدعو للتفاؤل كدور الصحافة ومجلس الشعب وآدمية الإنسان وما شابه

فتنفرج أسارير وتنطلق عبارات تشجيع وإعجاب وتكسو السذاجة ابتسامات راضية تماماً تناست أن الأسد حبيس العرين ولا يملك إلا أن يزأر فينبهر من حوله خوفاً وإعجاباً ... فقط من هم حول القفص .

بدأ الانفراج النسبى للمرور وتحركت السيارات ببطء ... نظرت إلى الساعة بيدى فإذا بست ساعات قد مرت ... ست ساعات حوت على الأقل ستين ألفاً من الحكايات ، النصيب الأكبر منها مأسوى دامى ، والباقى صور حية لإهدار الكرامة وانهزام حقوق الإنسان .

مرة ثانية جذب انتباهى الصوت المرتفع الآتى من السيارة المجاورة لنا - يردد « ياسعادة الباشا ساعة غضب وعدت ، يارب دايما عامرة بالزائرين » .

نهاية الرحلة

انتفض من جوارها يائساً ... ألقى على جسدها الظامىء الغطاء يخفى عربة المتحدي ... أدار مقبض الباب ببطء وخرج يجرجر قطعاً من ملابسه .

تأملت جسده من الخلف وهو ينسحب مهزوماً متعجبة كيف يمكن لمثل هذه المقاييس المثاليه للرجولة أن تهزم ؟!!

كيف لمثل هذا الجسد الجميل كأحد ألهة الإغريق ببنيانه المتناسق بطوله الفارع ، شكل رقبته المشدودة فى عظمه ، بعضلات ذراعيه الناتئة فى استدارات متناغمة ، بعرض منكبيه اللذين ينسحبان فى انسياب رائع إلى منتصف جسده ليتناسقا من جديد مع رجلين فتيتين تنمان عن القوة كيف لمثله أن يطوله العجز ؟!!

إن مجرد تأملها لجسده يثير فيها الإحساس برغبه قوية فى الذوبان فيه ، الالتحام به ، الاختفاء داخله .

لكن كيف وقد أصبحا جسمين غريبين كلما اقتربا لفظ كل منهما الآخر فلا سبيل للتعايش بينهما ولو لمجرد ثوان معدودة . غاصت بالفراش تائهة المشاعر فلا هى غاضبة ولا راضية ، محبطة لكنها

متعاطفة إلى أقصى مدى ، تعرف ما الذى يعنيه ما يحدث - منذ أن تزوجا - بالنسبة له . بالنسبة لأى رجل .

استدعت قصة حبهما الطويلة ... حسد صديقاتها لها على ذلك الزواج المكتمل .. تذكرت غيرتها من سماع قصص علاقاته المتعددة قبل أن يعرفها ... زهوها باختياره لها وحدها دون الجميلات جميعاً ... نشوتها بين ذراعيه وهو يراقصها ..

تصاعد إحساسها بالنشوه وهو يطبق بشفتيها على شفتيها فى وله ، إلى الآن يستطيع أن ينقل لها هذا الإحساس بالدفء ... بالنشوه بالحب المتدفق إلى أن تجىء اللحظة الحاسمة فإذا بسد يوقف شلالات عطائه ويحيل النار المشتعلة إلى رماد .

متأكدة هى إنه مازال يحبها بنفس القدر ... يرغب فيها رغبة لم يطفئها الشبع بل لم تهدأ منها محاولات الارتواء الفاشلة إلى الآن .

حاولا مراراً ... جنحا إلى تجاهل الأمر فى مرات أخرى ... جربت مساعدته بشتى الطرق ، تمنعت ... أقبلت ... تعرت ... تغطت ... غلفت لياليه بالرومانسية ... قلبتها نكد بعصبية مفتعلة ... حتى إثارة غيرته جربتها والنتيجة واحدة هذا الجسد الذي يفيض رجولة لايستجيب أبداً .

دخل الحجرة مبتعداً بنظراته المنكسرة عنها ... أكمل ارتداء ملابسه على عجل ... وخرج والليل يعلن عن منتصفه .

أيقظها فى الصباح مواء القطط الضالة التى اعتاد أن يأتى بها أخيراً ليأويها بالبيت وفى الحركة الثانية من سيمفونية الطبيعة التى

أصبحت تلازم أيامها بدأت أصوات عصافير الكناريا فى عزف النوتة الخاصة بها إلا أنها تنبهت لوجود صوت نشاز كأنه أنين حيوان جريح ، قفزت من الفراش تستوضح الجديد فى الأمر ، وجدته يدخل من الباب حاملا كلباً أجرب ملفوف قدمه اليسرى برباط أبيض نظيف فتوقعت ما قد حدث « من المؤكد أنه وهو فى طريقه إلى العمل صادف هذا الكلب المسكين فأخذه إلى أقرب بيطرى وفى عودته ابتاع له طعاماً خاصاً حتى يسترد عافيته سريعاً » . أطلق الحيوان الضعيف من بين يديه واستدار خارجاً دون تعليق .

اتجهت بنظراتها لصورة القرد الورقية الكبيرة المعلقة على الحائط تخفى نصفه متسائلة وماذا بعد ؟

- عادت فى المساء ... حين دخلت كان المكان غارقاً فى الظلام ، أدارت مفتاح النور ، وجدته جالساً على أحد المقاعد فى البهو ، ممسكاً رأسه بكلتا يديه ، فزعها صراخه فيها « إغلقى النور فوراً » أطفأت النور قبل أن يكمل عبارته ... أقبلت عليه منزعجة « ماذا بك ؟ لماذا تجلس هكذا فى الظلام ؟؟ » أجابها بعصبية شديده « أرجوك لا أريد أن أسمع أى صوت بجوارى ، رأسى تكاد تنفجر من الصداع » وشوشته « سأحضر له بعض الأقراص ستذهبه فى الحال » سارت خطوتين بدأ صراخه ثانيه . « فلتخلعى ذلك الحذاء الذى تدقين به الأرض لا أطيق سماعه » مدت يدها إلى حذائها تخلعه فى حرص شديد... اتجهت إلى غرفة النوم ، أغلقت بابها بهدوء وطوحت الحذاء بعرض ذراعها ، انفجرت فى البكاء لثوان ثم مسحت بيدها آثاره من على وجهها ، خرجت إليه حافية القدمين تحمل الدواء وكوب من الماء ، بدا لها وكأنه

قد استعاد هدوءه ... تناول الأقراص من يدها قائلاً « أخذت قبل مجيئك قرصين ولم يفعلا شيئاً » .

اقترحت عليه وهى تربت على كتفه أن يستريح بسريره فى غرفة النوم ، أزاح يدها عن كتفه مبتعداً به ، مردداً « سأنام بالحجرة المجاورة اليوم فأنا محتاج إلى هدوء تام ، تصبحين على خير » .

تطورت الحالة لتصير صداع نصفى مزمن ... رفض الذهاب إلى الطبيب .. ابتلع مئات الأقراص .. انقطع عن العمل فى أجازة مفتوحة .. اعتاد جلسة الظلام والصمت صباحاً مسدلاً الستائر كلها ، مساءً مطفئاً للأنوار كلها ... ولم تعد الحجرة الثالثة بالمنزل تسع مزيداً من حيوانات الطريق الضالة .

وصلا إلى نهاية الرحلة ... طالبته بالطلاق ، استجاب فوراً ، جمعت أشياءها فى حقيبة ... ضمها إلى صدره العريض بقوة كادت تمتصها داخله ... قبلها قبلة طويلة وضع فيها كل مشاعره المتضاربة ... كل أسفه على فراقها ... كل حبه لها .

حمل عنها الحقيبة ... أوصلها إلى باب بيت أسرتها بعد أن مرا معاً على المأذون .

الشقة رقم (٦)

لملم شحومها المتناثرة فوق ذراعه ونصف جسده ... أزاح رأس طفلته الصغيره من بين رجليه ، جمع أطرافها الموزعه على فراغات المساحة المتبقية لها من الفراش بينه وأمها .

على طرف السرير الرفيع الوحيد بالغرفه جلس للحظه يستكمل إفاقته حتى لا يقع على تلك الأجساد المفترشة الأرضيه الضيقه ... على الضوء الباهت للساعات الأولى من النهار تبين طريقه لطرف الحجرة هبط بقدمه بين أكوام اللحم ، هرس بها دون قصد منه ذراعاً رفيعة أسقطها النعاس فجأة فى المكان الخطأ ، كاد أن ينعثر بها ، سمع صيحة اعتراض قصيرة طواها سريعاً إنتظام صوت كتيبة الأنفاس العاليه .

ركل ما قابله بقدمه الكبيره غير عابىء ... وقف فى ركن، الحجرة أدخل رجليه فى البنطال المتسخ الواسع لف حوله وسطه لإقفاله حزاماً من القماش المهترىء لا لون له ... عدل من وضع ياقة البيجاما المقلوبة للداخل .. عبث بطرف بنانه فى زاويا عينيه، مسح بباطن كفه على شاربه الكث، قفز من فوق ماتبقى من أدمين فى طريقه حتى تمكن من الخروج .

فك تقطيبة جبينه ، إستقبل الهواء البارد في صدره بانتعاش اتجه إلى مكان التجمع ، صعد إلى السيارة مع الآخرين وهو يلقى عليهم بتحية صباح عاليه واضحه ، تحركت السيارة فسرح بنظراته داخل القفف البالية يسائل نفسه بلذة المغامر ترى كم زجاجة فارغة سأجدها اليوم ؟!

منذ أن وقعت تلك البناية في دائرة اختصاصه وهو يقبل على العمل بنشاط لم يكن يعرفه ، لم يعد يتغيب أبداً ، حتى ذلك السلم الحلزوني العالي المتعب أصبح يجد في صعوده وجمع القمامة من أمام أبوابه إثارة غريبه حتى أنه أحياناً يفكر فيه في المساء وفيما سيجده من جديد في صباح اليوم التالي .

انطلقت السياره مخلفة الجبال البنية العالية ورائها في اتجاه حياة أخرى حيث كل شيء مختلف ، البنايات الراقيه ، الحدائق المزهرة ، أشكال الرجال والنساء . حتى الكلاب في هذه المناطق لها شكل مختلف وأسماء عجيبة ذهبية أو بيضاء مكتنزة قصيرة الأرجل ... كثيفة الشعر تسير بدلال وتتوقف متى تشاء فتحثها على السير بلطف شديد أصوات ناعمة فيسمع « يلا يا كوكى » أو « ويعدين يا توسكا » .

يبدأ العمل كعادته من أعلى إلى أسفل ... يهبط سلم الخدم بنصف حمولة وفي الدور الثالث أمام الشقة رقم (٦) يكمل أداء عمله لكن ببطء وإتقان فالعمل هنا له متعة خاصة .

يجمع زجاجات الخمر الفارغة المرصوصة إلى جوار الحائط تحت نافذة الحمام ... يعدها باابتسامه خبيثه ، مازال العدد يتزايد كل يوم وبقايا وجبات الكباب أو عظام الحمام الرفيعة تكسو سطح الكيس الأسود

المفتوح مع قشور لأنواع مختلفه من الفاكهة الشهية يحدث نفسه « تُرى أى إبليس يسكن تلك الجنة ، يرفل فى سعادتها ، مترعاً خمرها ، متمتعاً بحورياتها اللاتى تتبدل أصوات ضحكاتهن الخافته من خلف الباب يوماً بعد يوم ؟؟ أيا من كان هذا الشخص فأنا أكن له محبه لا أعرف سببها ، ألا يكفى أنه يثق فى ولا يخجل من البوح لى بأسرار لياليه فى كل صباحْ » .

يكمل الدرجات حتى ينهيها وعند الباب الخارجى يلتقى بحارس العماره فلا يستطيع أن يمنع فضوله للسوائل أكثر من ذلك ، فيقترب منه بود وابتسامة واسعة تملأ وجهه قائلاً « صباح الخير ياعمنا هيه شقة ٦ ساكن فيها مين » فيتلقى الاجابة بغباء مقتضب « هشام بك وأنت مالك أنت بأسامى السكان شوف شغلك وأنت ساكت » فيرد عليه وهو ينطق القفه الممتلئه على كتفه ليعيد توازنها .. « سؤال ياعم هو السؤال حرم» ولا يكاد يبتعد خطوات قليله حتى يسمع صوت البواب يرد على تحيه باحسن منها « صباح الفل ياهشام بك » فيلتفت بسعاده على الفور ليرى تلك الشخصية المثيره المجهولة لأول مرة .

رجل فى الأربعينات ، طويل القامة ، أسود الشعر ، له شارب كث يرتدى بدلة أنيقة وتفوح منه رائحة عطر قوية ، يتجه إلى عربة فاخرة تقف أمام العمارة ويهم بركوبها .

يستدعيه صوت خشن « يلا يا سيد عايزين نقوم » فيتوجه إلى عربة القمامة يقلب بها ما يحمله ويقفز إلى جواره ، يتابع بنظراته هشام بك حتى تترك العربة الشارع متجهة إلى أخر .

فى هذه الليلة ووسط أكوام اللحم التى تتحرش ببعضها البعض بمجرد السير داخل الغرفه الضيقة ... أمام نصف مرآه مكسورة معلقة على الحائط وقف سيد يزيل بأصبعين بعض الشعيرات الشاردة عن شاربة ، يمشط شعره الغزير الأسود بصعوبة بمشط أهتم ، يتفرس فى وجهه وتواتيه فكرة لشد ماتسعده فى صمت يؤكد « هناك شبه كبير بيننا » يبدأ فى ضحكة عريضة يكتمها بين أسنانه فى منتصفها الكم الهائل من المراقبين من حوله وصوت زوجته الغليظ كجسدها « جري أيه ياراجل مالك النهاردة .. تتسبسب كده لمين » فينهرها فى طريقه إلى الباب « والله ياوليه ما أنت فاهمه حاجه أبداً » ثم يخرج ليعود بعد منتصف الليل حاملاً معه زجاجه خمر رخيصه . وأخرى لعطر فاقع الرائحة .

مضى على هذا الحال قرابة العام تكررت وقفة سيد أمام المرآة المكسورة كثيراً ... تجمع عنده عدد كبير من زجاجات الخمر الرخيصة الفارغة ... توثقت العلاقة الأحادية الطرف ... تدخل الخيال ليعين سيد على الاقتراب من تصور بعض التفاصيل عن صاحب الشقه رقم (٦) وأزدادت المتعة . إلى أن جاء يوم سحب خلفه سبعة أيام أخرى دون أن تخرج فيها زجاجات فارغة ولا بقايا وجبات طعام فاخرة ، تقلصت كمية القمامة وأحكم إغلاق الكيس الأسود المتروك بعيداً عن الباب ، وعجزت أذنا سيد عن التقاط أى حركه داخل الشقة فانشغل على صاحبها ... بعد أن فشل فى معرفة أى أخبار عن طريق البواب .. تناوبت على خاطره الأفكار كلها « أيكون مريضا ؟ ... أحدث له مكروه ولم يدر به أحد ؟ أترك العمارة وانتقل إلى شقة أخرى ؟ وبينما هو سارح فى تساؤلاته أمام الباب المغلق ذات يوم فُتح الباب المواجه للشقة فالتفت

ليجد سيدة مسنة تبادره « أنت ماجتش امبارح ليه » فيرد عليها بصوت مضغوم « جيت بس ماكنش عندك زبالة » تقاطعه بعصبيه « إزاى يعنى لما متلقيهاش قدام الباب ترن الجرس » .

قدمت له الفكرة جاهزة ليشبع فضوله ويطمئن على صديق الخيال . انتظر حتى أغلقت بابها متشاغلاً أمامها بإلتقاط ماسقط من القمامة ... ثم مد يده بجرأة يرن جرس الباب برهة قصيرة وفتح الباب نصف فتحة بدت من خلفها شابه صغيره يغطى رأسها طرحة بيضاء ولا يظهر من جسدها سوى كفين تلمع باحد أصابع كف منهما دبلة ذهبية عريضة وباختصار مهذب قالت « مفيش زباله عندى » وأغلقت الباب .

أنهى درجات السلم الحلزونى ببطء تنتابه مشاعر متناقضة يحدث نفسه بصوت هامس « الرجل العجوز حقه ، ربنا هداه أمال أنا مش مبسوط له ليه » .

خرج من العمارة بتكاسل ... قلب ما يحمله فى العربة باهمال أسقط نصفه خارجها ، إستند بقدمه على الحافة الخارجية للعربة ودخلها بتثاقل على غير عادته .

فى اليوم التالى ... على الضوء الباهت للساعات الأولى من النهار فتح عينيه ... أزاح رأس طفلته الصغيرة من بين رجليه ... هم بالقيام من الفراش ثم همس لنفسه « مش هروح النهارده ... أنا تعبان » .

أغلق عينيه واستسلم للنوم من جديد .

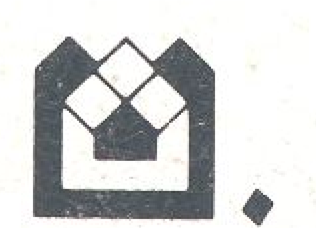
الفهرس

صفحة

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسات فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحياتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كليلة
١٥ - الأسماء لا تليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب

١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٨ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
١٩ - سارق الضوء	قصص	ليالى محمد



تعتمد قصص «سارق الضوء» على المفارقة ، لتكشف صفات خفية فى شخصيات أبطالها الذين يجهدون فى عدم البوح بها . وتجارب المجموعة تسعى إلى إضاءة جوانب متعددة ومختلفة فى المجتمع المصرى وما يمور فيه من مشكلات . وتتميز المرأة فى تلك القصص بقدرتها على إبصار ألوان الطيف لمشاعرها ومشاعر الآخرين





١٩٩٧